العَرْفُ الشَّذِي

في مواضع (من ذا الذي)

إعداد الأستاذ الدكتور
يحيى زكريا عبد المنعم أبو العزم
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد
في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة
جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

العَرْفُ الشَّذِي في مواضع (من ذا الذي)

يحيى زكريا عبد المنعم أبو العزم

قسم أصول الدين ،كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة ، جامعة الأزهر، مصر.

البريد الإلكتروني: yehiaabouelazm.4@azhar.edu.eg

الملخص:

الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم من أهمّ وجوه إعجازه، ففي القرآن الكريم ضـــروب من البلاغة تبهر الألباب، ومن الأســـاليب التى يكثر ورودها في الكلام البلاغي وفى المحادثة اليومية عند جميع الناس أســـلوب الاســـتفهام. وهو أســـلوب شـــيق، دقيق الأغراض، متنوع العرض، بحره مليء بالدر والياقوت، ومن هنا أردت مدارسة لغة القرآن الكريم واستبصـار مناحيه الجمالية في هذا الباب؛ لأبين دقة التعبير، وروعة التصـوير، وقوة التأثير في الآيات، وبالتالي تصـل النفوس إلى القناعة الراسـخة بأنّ القرآن ذو آفاق رحبة من الجمال والقيم الراقية، مما يحفزها على زيادة الإيمان والتحلي بتعاليم القرآن الحضارية السَّامِيَة.

ولا شـكّ أنّ اسـتقصـاء الآيات والوقوف عندها وقفةَ متأمّل، وانتقاء كلام العلماء لبيان دلالاتها، يتطلب وقتًا وجهدًا.وهذا البحث يهدف إلى إظهار عناية المفســرين بأسـلوب القرآن الكريم، ويظهر براعتهم في بيان وجوه إعجازه.

ويهدف البحث إلى إظهار الصــلة بين العلوم، حيث يظهر فيه صــلة علم التفســير بعلم الرقاق والآداب والمقامات؛ فلقد ارتبط الاســتفهام بمقام البذل في الجهاد؛ لإعزازِ الدِّين، وتوهين أهل الكفرِ؛ والحض على الاتصــاف بالخير، وارتبط بمقام الشــفاعة؛ ليرشــد الناس إلى أن حُكْم الله تعالى يجري على الجميع، فليس لغيره في شـيء من الأشـياء حكم إلا بأمره، وارتبط الاسـتفهام أيضًـا بمقامي النصر والتوكل؛ ليوجه أنظار المخاطبين إلى أن الله وحده الكبير المتعال، ولا ناصــر ســواه، فلا يتوكلون إلا عليه سبحانه وتعالى، كما ارتبط الاستفهام أيضًا بمقام الإنفاق في سبيل الله تعالى، وارتبط كذلك بمقام التسليم؛ لبيان أن إرادة الله تعالى محيطة بالمخلوقات.

وقد سلكت في بيان ذلك المنهج الاستقرائي، ويظهر في تتبع مواضع (من ذا الذي) في الكتاب الكريم، والمنهج التحليلي، ويظهر في دراسة هذه الآيات وبيان الفوائد المستخرجة منها.

الكلمات المفتاحية: بلاغة الاستفهام، من ذا الذي، مقام البذل في الجهاد، مقام الشفاعة، مقام النصر ومقام التوكل، مقام التسليم.

The proliferous Agreeability in the Stances of (Who is who)

By: Yahia Zakaria Abdel- Monem Abu Al- Azm
Department of Osoul El- Deen
Faculty of Islamic and Arabic Studies for Men in Cairo
Azhar University

Abstract

The rhetorical inimitability of the Joly Qur'an is one of the most important aspects of its miraculousness. In the Holy Qur'an, one would find numerous rhetorical modes that impress the minds. The interrogative style, being one of the styles that are repeatedly used in the rhetorical speech and daily dialogues of all people, is very interesting as it has precise purposes, various displaying ways, and its sphere abounds in precious and valuable meanings. Hence, the researcher was determined to study the language of the Holy Qur'an and find out about its rhetorical aspects which would show accurate expression, beautiful delineation and the power of influence implied in the verses. Accordingly, human selves become firmly convinced that the Holy Qur'an has wide horizons of poetics and supreme values which help increasing faith and following the supreme and civilized instructions of the Holy Qur'an. It is no doubt that investigating the Qur'anic verses contemplating them underlining the words of the scholars showing their meanings would surely require more time and effort. This research is designed to trace the intensive care which the interpreters allotted to the style of the Holy Qur'an. The research also displays the ingenuity of the interpreters to display the miraculous aspects of the Holy Qur'an. In addition, the research aims at displaying the relationship between sciences where the relationship between the sciences of interpretation, heart- softening, arts and Maqamat (stances) is evident. The interrogation related to the stance of sacrificing in militancy to strengthen religion, weaken the infidels as well as seeking fairness with reference to goodness. it is also related to the stance of intercession to guide people to the decision of Allah to which all of them are subject to since no one else has the right to rule over anything except by His command. The interrogation is also related to the stances of achieving victory and placing trust in Allah to draw the attention of the addressee to the fact that only Allah is the Great and the High Exalted, no one else is victorious rather than Allah. Thay can only rely on Allah, Glory be to Him. The interrogation is also related to the stance of spending in the way of Allah. In addition, the interrogation is related to the stance of surrendering to Allah to show that the Will of Almighty Allah surrounds all creatures. The research applies the inductive approach, and it appears in tracing the places of (who is who) in the Holy Qur'an. It also follows the analytical approach which is utilized in the analysis of the verses to highlight the extracted benefits.

Key words: rhetoric, interrogation, who is who, the stance of spending in militancy, the stance of intercession, the stance of victory, the stance of placing trust in Allah, the stance of surrendering to Allah.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، الحي الذي لا إله إلا هو، قيوم السماوات والأرضين، والصلاة والسلام على خير البرايا ونور الأنوار وخاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد...

فإنه لمّا كان الفلاح لازمًا لمن أنفق عمره في العلم النافع والعمل الصالح، وكمّل غيره في هذين الأمرين؛ كان الأحرى بالإنسان أن يقضي سويعات عمره فيما ينال به المطالب العالية، ويتخلّص به من الخسران؛ وليس ذلك إلا بالإقبال على تعلُّم القرآن الكريم، واستخراج بعض ما أودعه الله تعالى فيه من كنوز العلم النافع والحكمة العالية!!!

ولمّا كان الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم من أهمّ وجوه إعجازه، ولّيت وجهي شطره؛ ففي القرآن الكريم ضروب من البلاغة غير مسبوقة، وموارد عذبة تهوي إليها أفئدة العلماء، وتحطّ الرحالَ عند بديع معانيها البلغاء، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الردّ، مهما انصرفت إليه الأقلام، وتتابعت عليه الأفهام!!!

واخترت بتوفيق من الله تعالى مبحث الاستفهام؛ لكونه مبحثًا شيقًا قد تفتحت أزهاره في ضوء القرآن الكريم، وهو مبحث رائع الأساليب، دقيق الأغراض، متنوع العرض، بحره مليء بالدر والياقوت!!!

وهو من الأساليب الإنشائية التي يكثر ورودها في الكلام البلاغي، وفى المحادثة اليومية عند جميع الناس.

ومن هنا أردت مدارسة لغة القرآن الكريم واستبصار مناحيه الجمالية في هذا الباب؛ لأبين دقة التعبير، وروعة التصوير، وقوة التأثير في الآيات!!!

وبالتالي تصل النفوس إلى القناعة الراسخة بأنّ القرآن ذو آفاق رحبة من الجمال والقيم

الراقية، مما يحفزها على زيادة الإيمان والتحلي بتعاليم القرآن الحضارية السَّامِيَة.

ولقد أفدت من كتب سادتنا العلماء قديمًا وحديثًا في فهم النصوص فهمًا صحيحًا، ومن الله تعالى التوفيق في الأولى والآخرة.

مشكلة البحث:

لا شكّ أنّ استقصاء الآيات والوقوف عندها وقفةَ متأمّل، وانتقاء كلام العلماء لبيان دلالاتها، يتطلب وقتًا وجهدًا، وهذا البحث يجيب عن أسئلة هي:

١ – ما هي مواضع (من ذا الذي) في الكتاب الكريم؟

٢ – ما هي الفوائد والمسائل التي تحتويها هذه الآيات؟

٣ – ما هي المقامات المرتبطة بهذه الآيات؟

أهمية البحث وهدفه:

هذا البحث يكشف عن عناية المفسرين بأسلوب القرآن الكريم، وإظهار براعتهم في بيان وجوه إعجازه، وفيه وصْلٌ بين العلوم، حيث يظهر فيه صلة علم التفسير بعلم الرقاق والآداب والمقامات.

أسباب الاختيار:

١ – الاقتداء بالسلف الصالح والأئمة شموس العلم في العناية بالنص الكريم، وإظهار ما فيه من هدايات بقدر الطوق.

٢ – لم أقف على دراسة في هذا الباب.

حدود البحث:

تتبعت مواضع (من ذا الذي) في الكتاب الكريم.

الدراسات السابقة:

بعد اطلاعي – بتوفيق الله – فإنه لم تتناول هذه الآيات دراسة علمية محكَّمة ولا تفسيرية

متخصصة، والحمد لله على فضله العظيم.

منهج البحث:

المنهج الاستقرائي، ويظهر في تتبع مواضع (من ذا الذي) في الكتاب الكريم، والمنهج التحليلي، ويظهر في دراسة هذه الآيات وبيان الفوائد المستخرجة منها.

الإجراءات الخاصة:

١- طالعت القرآن الكريم، واستقرأت مواضع (من ذا الذي).

٢- قسمتها بحسب فصول ومباحث هذا البحث.

٣- بينت كلام العلماء في هذه الآيات وما يمكن أن نستفيده منها.

٤- عزوت الآيات.

٥- قمت بتخريج الأحاديث النبوية الموجودة في البحث؛ فإن كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما، اكتفيت بالإحالة إليهما، وإن كان في غيرهما، ذكرت موضعه، مع بيان درجته.

٦- توخيت قدر الإمكان الدقة في التعبير، والسهولة في الأسلوب، وراعيت الأمانة العلمية في النقل عن المصادر، فأثبت ما نقلت بقولي: (ك كذا ص كذا) إذا كان الكلام منقولاً بنصِّه، ويراجع: (ك كذا ص كذا) إذا كان منقولاً بتصرف.

٧- عرّفت بكل ما ظننته مشكلاً قدر الإمكان، وترجمت للأعلام الواردة في البحث، واستثنيت من ذلك بعض مَن عمّت شهرتهم وذاع فضلهم، وقد ترجمت للعلم عند ذكري له أول مرة، والله هو الهادي للصواب.

خطة البحث:

قسّمت البحث إلى مقدمة وتمهيد وفصول وخاتمة وفهارس:

أما (المقدمة): فهي عن مشكلة البحث، وأهميته، وأسباب اختياره، وحدوده، والدراسات السابقة فيه، ومنهجي فيه، وخطتي فيه.

وأما (التمهيد): فهو عن الاستفهام وحروفه وما يُطلَب به وبلاغته.

وأما (الفصل الأول): فهو عن (مَن ذا الذي) من حيث الإفراد والتركيب.

وأما (الفصل الثاني): فقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: مسائل الآية الكريمة

المبحث الثاني: ارتباط (من ذا الذي) بمقام البذل في الجهاد

وأما (الفصل الثالث): فقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: (مسائل الآية)

المبحث الثاني: ارتباط (من ذا الذي) بمقام الشفاعة

وأما (الفصل الرابع): فقوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: في مسائل الآية

المبحث الثاني: ارتباط (من ذا الذي) بمقامي النصر والتوكل

وأما (الفصل الخامس): فقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٌ كَرِيمٌ﴾، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: في مسائل الآية

المبحث الثاني: ارتباط (من ذا الذي) بمقام الإنفاق في سبيل الله تعالى

وأما (الفصل السادس): فقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: في مسائل الآية الكريمة

المبحث الثاني: ارتباط (من ذا الذي) بمقام التسليم

وأما (الخاتمة): فهي عن أهم نتائج البحث.

وأما (الفهارس): ففيها فهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

وبعد،،،، فقد اجتهدت في السلامة من الزلل قدر الإمكان؛ لكنني لا أشك في وقوعه؛ فالبضاعة قليلة، والباع قصير، والذنوب كثيرة؛ ولكن حسبي أني أردت أن أستنير بآراء العلماء المحققين، وأن ألاحقهم للأخذ عنهم بما يسّر الله لي من تهذيب ألفاظهم واستخراج درر المعاني منها، جاعلاً المولى جل شأنه قصدي وحسبي، فأسأله تعالى القبول والتوفيق، وأن يثبت أقدامنا على منهاج الهدى، وأن ينطقنا بما فيه رضاه، وأن يأخذ بنواصينا إلى البر، وألا يكلنا إلى أنفسنا، سبحانه له الخلق والأمر، وإليه تصير الأمور.

اللهم اغفر زلاتي، وأَقِلْ عثراتي، وخلِّصني من آفاتي،

وأيدني بالتوفيق في الدنيا والآخرة.

تمهيد

الاستفهام وحروفه وما يُطلَب به وبلاغته

الاستفهام هو: طلب الْمُتَكَلِّم من مُخَاطبَه أن يحصل في ذهنه ما لم يكن حاصلاً عنده مما سأله عنه، ومن ثَمَّ فإن جملة الاستفهام جملة طلبية.(١)

حروفه:

وقد تكلم العلماء في حروف الاستفهام، فقالوا: حروف الاستفهام ثلاثة: (الهمزة، وأم، وهل)، وما عدا هذه الثلاثة فأسماء، وهناك ظروف أُقيمت مقامها؛ فالأسماء: (مَنْ، وما، وكم، وكيف)، والظروف: (أين، وأنَّى، ومتى، وأيّان).

ولكل واحدٍ منها موضع يختص به، فـ (مَنْ) سؤال عمَّن يعقل، و(مَا) سؤال عمَّا لا يعقل، و(كم) سؤال عن العدد، و(كيف) سؤال عن الحال، و(أين)، و(أنى) سؤال عن المكان، و(متى)، و(أيان) سؤال عن الزمان.(٢)

ما يُطلَب به:

وأمَّا أدوات الاستفهام بالنسبة إلى التصديق والتصور فثلاثة أقسام: ما يُطلَب به التصديق أو التصور، وهي الهمزة، وما يُطلب به التصديق فقط، وهي (هل)، وبقية الأدوات يُطلب بها التصور.

وطلب التصديق: عندما يكون المتكلم خالي الذهن مما استفهم عنه في جملته، وبالتالي

---

(١)ـ يراجع: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي ١/ ٩٧، ط: مؤسسة الرسالة- بيروت، ت: عدنان درويش-محمد المصري.

(٢)ـ يراجع: أسرار العربية لأبي البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنباري ١/ ٢٦٧، ط: دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط١: ١٤٢٠هـ، واللمع في العربية لأبي الفتح عثمان بن جني ١/ ٢٢٧، ط: دار الكتب الثقافية- الكويت، ت: فائز فارس.

يُسأل فيه عن الجملة التي بعد كلمة الاستفهام: أصادقة هي أم غير صادقة؛ ولذلك يجاب عنها بـ"نعم" أو "لا"، ويستعمل في هذه الجملة حرفان: الهمزة وهل، وهذان الحرفان يتفقان في أشياء ويختلفان في أشياء؛ فهما يتفقان في دخولهما على الجملة بنوعيها: الاسمية والفعلية، نحو: أزيد موجود؟ أسافر زيد؟ هل زيد موجود؟ هل سافر زيد؟

ويقول النحاة: إن الهمزة هي الأصل في الاستفهام، ومن ثَمَّ فهي تفترق عن "هل" باستعمالات خاصة؛ فهي تدخل على الجملة المثبتة، والجملة المنفية، أما "هل" فلا تستعمل إلا مع الجملة المثبتة، تقول: أسافر زيد؟ ألم يسافر زيد؟ أزيد مسافر؟ أليس زيد مسافر؟ وتقول: هل سافر زيد؟ هل زيد مسافر؟ لكنك لا تقول: هل لم يسافر زيد؟ هل ليس زيد مسافرا؟

وهي تدخل على الجملة الشرطية، ولا يصح ذلك مع "هل" تقول: أإن نجح زيد تكافئه؟ ولا تقول: هل إن نجح زيد تكافئه؟

وهي تدخل على "إنَّ" ولا يصح ذلك مع "هل"، تقول: أإنه لشاعر؟ ولا تقول: هل إنه لشاعر؟

وأما طلب التصور: فتستخدم فيه الهمزة وبقية كلمات الاستفهام؛ ولا يُسأل فيه عن صدق الجملة المستفهم عنها، بل يُسأل عن تصور المستفهم عنه؛ نحو: نحو أعليٌّ مسافر أم سعيد؟ فأنت تعتقد أن السفر حصل من أحدهما، ولكن تطلب تعيينه، ولذا يجاب فيه بالتعيين.

وجواب طلب التصديق إذا كانت الجملة مثبتة يكون بـ"نعم" إثباتا، و"لا" نفيا؛ نحو: أحضر زيد؟ هل حضر زيد؟ فتقول: نعم، حضر زيد. لا، لم يحضر زيد، وتقول في إعرابها: حرف جواب مبني على السكون لا محل له من الإعراب.

وإذا كانت الجملة منفية يجاب عنها بـ"بلى" إثباتا، و"نعم" نفيا، نحو: ألم يحضر زيد؟ أليس زيد حاضرا؟ فتقول: بلى، حضر زيد. نعم، لم يحضر زيد.

وأما جواب طلب التصور: فلا يستعمل فيه حرف جواب، وإنما يجاب بتحديد المسئول عنه؛ كما سبق.[(١)]

بلاغة الاستفهام:

ومن دقيق باب الاستفهام أَن يُوضَع في الشرط، وهو في الحقيقة للجزاء، نحو قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ سورة الأنبياء: ٣٤، أي: أفهم الخالدون إن مت؟

وقد يكون استخبارًا والمراد التبكيت، نحو قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سورة المائدة:١١٦، فإنه تبكيت لمن ادَّعى ذلك، وذلك أنه طلب به إقرار عيسى عليه السلام في ذلك المشهد العظيم بأنه لم يقل ذلك؛ ليقرر كذبهم فيما ادَّعوه.

وقد يكون استخبارًا والمراد به الإفهام والإيناس، نحو قوله تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ سورة طه: ١٧

ومن معاني الاستفهام: التقرير: أي حمْل المخاطَب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده، نحو قوله تعالى: ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ سورة الأعراف: ١٧٢

ومن معانيه: التعجب أو التعجيب، نحو قوله تعالى:﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ سورة البقرة:٢٨

ومن معانيه: التذكير، نحو قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ سورة يس: ٦٠

---

(١)-يراجع: مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي ٦٢٦هـ ١/ ٣٠٨ وما بعدها، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، ط٢: ١٤٠٧هـ، ت: نعيم زرزور، والإيضاح في علوم البلاغة لأبي المعالي محمد بن عبد الرحمن جلال الدين الخطيب القزويني الشافعي ٣/ ٥٥ وما بعدها، ط: دار الجيل- بيروت، ط٣، ت: محمد عبد المنعم خفاجي، والتطبيق النحوي للدكتور عبده الراجحي ١/ ٣٠١، ط: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط١: ١٤٢٠هـ.

ومن معانيه: الافتخار، نحو قوله تعالى عن فرعون: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ سورة الزخرف: ٥١

ومن معانيه: التهويل والتخويف، نحو قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ سورة القارعة: ١-٢

ومن معانيه: التهديد والوعيد، نحو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ سورة المرسلات: ١٦

ومن معانيه: الأمر، نحو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ سورة الفرقان: ٢٠

ومن معانيه: التنبيه، وهو من أقسام الأمر، نحو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ سورة الحج: ٦٣

ومن معانيه: التكثير، نحو قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ سورة الأعراف: ٤

ومن معانيه: الترغيب، نحو قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ سورة الصف: ١٠

ومن معانيه: النهي، نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ سورة الانفطار: ٦

ومن معانيه: الدعاء، نحو: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ سورة الأعراف: ١٥٥؛ أي: لا تهلكنا.

ومن معانيه: التمني، نحو: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ سورة الأعراف: ٥٣

ومن معانيه: الاستبطاء، نحو: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ سورة البقرة: ٢١٤

ومن معانيه: التحقير، نحو: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ سورة الفرقان: ٤١

ومن معانيه: الاكتفاء، نحو: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ سورة الزمر: ٦٠

ومن معانيه: الاستبعاد، نحو: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ سورة الدخان: ١٣

ومن معانيه: التهكم والاستهزاء، نحو: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ

أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ سورة هود: ٨٧

والاستفهام عقيب ذكر المعايب أبلغ من الأمر بِتَرْكِهَا؛ كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ سورة المائدة:٩١.[1]

(١)ـ يراجع: الكليات ١/ ٩٧ وما بعدها.، والإيضاح في علوم البلاغة ٣/ ٥٥ وما بعدها.

الفصل الأول

(مَن ذا الذي) إفرادًا وتركيبًا

أولا: لطيفة في (مَن):

(من) صالحة لكل من يعقل، والأكثرون على أن (ما) تعمُّ العقلاء وغيرهم؛ وقد يستعار أَحدهما للآخر؛ نحو قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ سورة النور: ٤٥

و(من) تكون اسمًا؛ بدليل وقوعها في مواضع الأسماء، وتأديتها ما يُؤَدِّيه سائر الأسماء، فتكون فاعلة ومفعولة وغير ذلك، تقول: جاءني مَن في الدار، وضربت مَن في الدار، ومررت بمن أكرمك.

ويخبر بها عن الاثنين والجميع والمؤنث بلفظٍ واحد فيه وفي صلته من الفعل، ويجوز تثنيته وجمعه وتأنيثه على المعنى؛ نحو قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ سورة الأنعام: ٢٥، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ سورة يونس: ٤٢

وتأتي (من) موصولة؛ نحو: إن مَن فِي الدَّار يكرمك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ سورة البقرة: ٢٠١

وتأتي نكرة موصوفة؛ كقول الشاعر(١):

رُبَّ مَن أنضجْتُ غيظًا صَدْرَه　　قد تمنى لي موتًا لم يُطَع

وقد تأتي نكرة يلزمها النعت، كقولك: مررت بمن محسن إِليك: أي بإِنسان محسنٍ إِليك.

وتكون شرطية ينجزم الفعل وجوابه معها؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ سورة الأحزاب: ٣١

---

(١)- هو سويد بن أبي كاهل، مخضرم، توفي بعد سنة ٦٠هـ، يراجع: المفضليات للمفضل الضبي ١/ ١٩٨، ط: دار المعارف- القاهرة، ت: الشيخ أحمد محمد شاكر، والشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري ١/ ٤١١، ط: دار الحديث- القاهرة.

وتكون اسمًا تامًّا للاستفهام عمن يعقل؛ كما هو الحال في محل دراستنا.

فإن استفهمتَ بها عن اسم علم، حكيته كما تسمعه، فإن كان مرفوعًا رفعتَ، أو منصوبًا نصبتَ، أو مجرورًا جَرَرْتَ؛ فإن قال قائل: جاءني زيدٌ، قلت: مَنْ زَيْدٌ؟ بالرفع، وإن قال: رأيت زيدًا، قلت: مَنْ زيدًا؟ بالنصب، وإن قال: مررت بزيدٍ، قلتَ: مَنْ زيدٍ؟ بالخفض، وبنو تميم يرفعون جميع ذلك ولا يحكونه؛ فإن ألحقتَ (من) حرفَ عطف فقلت: ومن زيد؟ أو فمن زيدٌ؟ فلا حكاية، ولم يَجُز إلا الرفعُ، وكذلك إن نَعَتَّ المحكي أو عطفت عليه، فالرفع الوجه، وذلك كقولك: رأيت زيدًا العاقلَ، ومررت بعمروٍ وأخيه، لا يجوز إلا مَنْ زيدٌ؟ مَنْ عمروٌ؟ بالرفع.

وكذلك سائر المعارف لا يجوز فيها إلا الرفع، فإذا قيل: رأيت الرجل، ومررت بأخي زيد، قلت: مَنْ الرجلُ؟ ومَنْ أخو زيد؟ بالرفع.

فإن استفهمت بمن عن نكرة، ووقفت عليها، ألحقتها واوًا في موضع الرفع، وألفًا في موضع النصب، وياءً في موضع الجر في الواحد المذكر، فإن قيل: جاءني رجلٌ، قلت: منو؟ وفي التثنية:منان؟ بالألف، وفي الجميع: منون؟ وإن قيل: رأيت رجلًا، قلت: منا؟ وإن قيل: مررت برجلٍ، قلت: مني؟ وفي التثنية: منين؟ وفي الجمع: منين؟

فإن استفهمت عن مؤنث ألحقت «من» هاءً ساكنة، وحركتَ النون، فإذا قيل: جاءتني امرأة، قلت: مَنَهْ؟ وإن قيل: امرأتان، قلتَ: مَنْتان؟ بسكون النون، وفي النصب والخفض: منتين؟ وفي الجمع: منات؟[1]

(١)- يراجع: المقتضب لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد ٣/ ١٧٢، ط: عالم الكتب، ت: محمد عبد الخالق عظيمة، وعلل النحو لأبي الحسن محمد بن عبد الله بن الوراق ١/ ٤٢٦، ط: مكتبة الرشد- الرياض، ت: محمود جاسم، ورسالة منازل الحروف لأبي الحسن الرماني ١/ ٤٠، ط: دار الفكر- عمان، ت: إبراهيم السامرائي، وشمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم لنشوان بن سعيد الحميرى اليمني ت ٥٧٣هـ ٩/ ٦١٧٣، ط: دار الفكر المعاصر- بيروت، ت: د/ حسين بن عبد الله العمري- مطهر بن علي الإرياني- د/ يوسف محمد عبد الله، والإيضاح في علوم البلاغة ٣/ ٥٥ .

ثانيًا: لطيفة في (ذا):

(ذا) اسمٌ مُبْهَمٌ لَا يُعرَف ما هو حتى يُفَسِّره ما بعْدَه، ويُشار به إلى غير مذكور لفظًا، مذكور معنى، وقيل: بل هي اسْمٌ لكلِّ مُشارٍ إليه مُعايَنٍ يَراه المُتكلِّمُ المُخاطِبُ.

ويزاد فيها كاف الخطاب، فيقال: ذاك، وإذا زاد بُعْد المشار إليه أتوا باللام مع الكاف؛ لأن قوة اللفظ مشعرة بقوة المعنى.

وجعل البعض فَتْحَةَ الذَّالِ فرقًا بين التذكير والتأنيث، فقالوا: ذَا أخوك، وذِي أختك، وذِي أَمَةُ اللهِ، فكسروا الذال في الأنثى، وزادوا مع فتحة الذال في المذكر ألفًا، ومع كسرتها للأنثى ياءً، كما قالوا: أَنْتَ وأَنْتِ.

ثالثًا: تركيب (ذا) مع (من):

وذا لا تجيء موصولة إلا بشرط أن تقع بعد (ما، من) الاستفهاميتين، وألا يُرادَ بها الإشارة، وألا تُجعل مع (مَنْ أو ما) كلمة واحدة للاستفهام، فإن أُريد بها الإشارة؛ مثل: ماذا التواني؟ مَنْ ذا القائم؟ أي ما هذا التواني؟ من هذا القائم؟ فهي اسم إشارة، وإن جُعلتْ مع (مَنْ أو ما) كلمةً واحدةً للاستفهام؛ مثل: لماذا أَتيتَ؟ أي لِمَ أَتيتَ؟ كانت مع ما قبلها اسم استفهام.

ولزيادة التوضيح أقول والله الموفق: (ذا) التي تأتي بعد (من أو ما) الاستفهاميتين تكون اسمًا موصولاً، ويجوز أن تكون اسم إشارة، ويجوز فيها الإلغاء، فإما أن تجعل مع (ما) كلمة واحدة، وإما أن يقال: هي زائدة ولا محل لها من الإعراب.

ففي نحو قوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى ﴾ يصح أن تكون (ذَا) مُسْتَعْمَلة في معناها، كما تقول- وقد رَأَيْتَ شَخْصًا لا تعرفه-: (مَنْ ذَا)، فإذا لم يكن في مقام الكلام شيء يصلح لِأَنْ يُشار إليه بالاستفهام، كان استعمال (ذَا) بَعْدَ اسم الاستفهام للإشارة المجازية، بِأَنْ يَتَصَوَّرَ الْمُتَكَلِّمُ في ذهنه شَخْصًا مَوْهُومًا مَجْهُولًا صَدَرَ منه فِعْلٌ، فَهُوَ يَسْأَلُ عن تعيينه، وإنما يكون ذلك للاهتمام بالفعل الواقع وَتَطَّلُّبِ معرفة فاعله، و﴿ مَن ﴾ على ذلك رفع على الابتداء، و﴿ ذَا ﴾ خبر، و﴿ ٱلَّذِى﴾

نعت لـ﴿ ذَا﴾ أو بدل منه، وقال البعض: إن في هذا الوجه بُعْدًا؛ لأن ﴿ ذَا ﴾ إذا كان اسم إشارة وكان خبرًا عن ﴿ مَن﴾، استقلت بهما الجملة، وأنت ترى احتياجها إلى الموصول بعدها.

ويرى البعض أن ﴿ مَن ﴾ الاستفهامية قد رُكِّب معها ﴿ ذَا ﴾، وهو الذي يعبر عنه بعض النحويين بقولهم: لغو –ولا يليق هذا اللفظ مع كلمة من كتاب الله، بل يقال: زيادة تأكيد– فيكون ﴿مَن ذَا﴾ كله في موضع رفع بالابتداء، والموصول بعدهما هو الخبر؛ إذ به يتم معنى الجملة الابتدائية، والعرب تزيد ﴿ذَا﴾ لِمَا تَدُلُّ عليه الإشارة من وجود شخص مُعَيَّنٍ يَتَعَلَّقُ به حكم الاستفهام، حتى إذا ظهر عَدَمُ وجوده، كان ذلك أَدَلَّ على أن ليس ثَمَّةَ مُتَطَلِّعٍ يُنَصِّبُ نفسه لِادِّعَاءِ هذا الحكم، ويرى هؤلاء تعيُّن الإلغاء إذا أتى بعدهما اسم موصول، وأن نجعل (من ذا) كلمة واحدة؛ لأنك لو جعلتها بمعنى الذي، لكان الكلام ركيكًا.

وهناك من يرى أن (ذا) اسم موصول بمعنى "الذي"، وأنها خبر "من"، وتكون كلمة "الذي" الموجودة توكيدًا لفظيًّا لكلمة: "ذا" التي هي اسم موصول بمعناها، وَقد بَوَّبَ سِيبَوَيْهِ[(١)] فِي (كِتَابِهِ) بابًا بهذا فقال: (بَابُ إجرائهم ذا بمنزلة الذي).[(٢)]

ويظهرُ أثر ذلك الخلاف في (ذا) في التابع أيضًا، فإن جعلت "ذا" مع "(مَنْ أو ما) كلمة واحدة للاستفهام، قلتَ: ماذا أَنفقتَ؟ أَدرهمًا أَم دينارًا؟ ومَنْ ذا أَكرمتَ؟ أَزُهيرًا أم أَخاهُ؟ بالنصب، وإن جعلتَ (مَنْ أو ما) للاستفهام، و"ذا" موصوليّة، قلت: ماذا أَنفقتَ؟ أَدرهمٌ أم دينارٌ؟ ومَنْ ذا أَكرمتَ؟ أزهيرٌ أَم أَخوه بالرفع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ سورة

(١)ـ هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الملقب سيبويه –بالفارسية رائحة التفاح– إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو، ولد في إحدى قرى شيراز سنة ١٤٨ه، وقدم البصرة، فلزم الخليل بن أحمد ففاقه، وصنف كتابه المسمى "الكتاب" في النحو، لم يصنع قبله ولا بعده مثله، ورحل إلى بغداد، وعاد إلى شيراز فتوفي بها سنة ١٨٠ه، يراجع: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للإمام السيوطي ٢/ ٢٢٩، ط: المكتبة العصرية – لبنان، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٢)ـ الكتاب لسيبويه ٢/ ٤١٦، ط: مكتبة الخانجي – القاهرة، ط٣: ١٤٠٨هـ، ت: عبد السلام محمد هارون.

البقرة: ٢١٩، فعلى قراءة النصب في ﴿ ٱلۡعَفۡوَ ﴾ تكون (ذا) ملغاة؛ لأن اسم الاستفهام مفعول مقدم ل ﴿ يُنفِقُونَۖ ﴾ ، سواء كانت ﴿ مَاذَا ﴾ كلمة واحدة، أو(ما) اسم استفهام، و(ذا) زائدة، وعلى قراءة: (العفوُ) بالرفع يكون تقدير الكلام: ما الذي ينفقونه؟ فتكون (ما) مبتدأ، والذي اسم موصول خبره، وجملة (ينفقون) صلة الموصول، والعفو: خبر مبتدأ محذوف؛ أي: الذين ينفقون العفو، أو هو العفو.[١]

(١)ـ الكليات ١/ ٤٦٠، وتاج العروس ٤٠/ ٤٢٢، وجامع الدروس العربية لمصطفى بن محمد سليم الغلايينى ت١٣٦٤هـ ١/ ١٣٤، ط: المكتبة العصرية– صيدا، ط٢٨: ١٤١٤هـ.

الفصل الثاني

قوله تعالى: (مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً)

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: مسائل الآية الكريمة

المبحث الثاني: ارتباط (من ذا الذي) بالبذل في الجهاد

المبحث الأول: مسائل الآية الكريمة

قال تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ سورة البقرة: ٢٤٥

الآية هنا فيها حثٌّ لأمة محمد صلى الله عليه وسلم على البذل في سبيل الله؛ وبيان بأن الباذل لإعزازِ الدِّين، وتوهين أهل الكفرِ؛ يرتقي المقامات الشريفة التي تتوجه إليها مدْحَةُ الله تعالى وكريمُ وعده.

وفي الآية الكريمة مسائل:

(المسألة الأولى): بين الله سبحانه وتعالى في الآية السابقة أن بَذْلَ النفس في سبيل الله سبيلُ حياة، وأن عدم الاستعداد والقعود عن الجهاد مؤذن بفقد كيان المجتمع.

ولذا أردف سبحانه الأمر بالقتال – وهو بذل للنفوس – في قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ سورة البقرة: ٢٤٤، بالأمر بالعطاء – وهو بذل للمال – فقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ﴾

ومن هنا يرى بعض المفسرين أن هذه الآية متعلقة بما قبلها، والمراد منها القرض في الجهاد خاصة، وأنها ندبٌ للعاجز عن الجهاد أن ينفق على الفقير القادر على الجهاد، وأمْرٌ للقادر على

الجهاد أن ينفق على نفسه في طريق الجهاد.(١)

ويرى آخرون أن هذا الكلام مُبْتَدَأٌ لا تَعَلُّقَ له بما قبله، وأن المراد منه إنفاق المال في سائر أنواع الصدقة؛ بدليل التعبير بلفظ القرض(٢)، وبدليل ما جاء في سبب نزول الآية(٣) أنها نزلت في أبي الدَّحْدَاحِ(٤)، وأنه "قال يا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أو إن الله يريد منا القرض؟! قال: نعم يا أبا الدحداح، قال: فإني قد أقرضت الله حائطي –لحائط فيه ستمائة نخلة– ثم جاء الحائط وفيه أم الدحداح، فقال: اخرجي فإني قد أقرضت ربي حائطي هذا، قال: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كَمْ مِنْ نَخْلَةٍ رَدَاحٍ، تُدْلِي عُرُوقَهَا في الجنة لِأَبِي الدَّحْدَاحِ."(٥)

(المسألة الثانية): سر الإتيان بهذه الجملة الاستفهامية المتضمنة معنى الطلب هو ما تحويه من الاستفهام الباعث للأذهان والمحفز للعقول على الالتفات، وبمقدار الوعي عند الاستماع تكون الإجابة.

---

(١)- يراجع: جامع البيان في تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٥/ ٢٨٢، ط: مؤسسة الرسالة، ط١: ١٤٢٠هـ، ت: الشيخ أحمد محمد شاكر.

(٢)- يراجع: مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٦/ ٤٩٨، ط: دار إحياء التراث، والجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ٣/ ٢٣٧، ط: دار الكتب المصرية، ط٢: ١٩٦٤م، والبحر المحيط لأبي حيان ٢/ ٥٦٥، ط: دار الفكر.

(٣)ـ العجاب في بيان الأسباب لابن حجر ١/ ٦٠٢، ط: دار ابن الجوزي، ت: عبد الحكيم الأنيس.

(٤)ـ هو أبو الدحداح، وقيل: أَبُو الدحداحة بن الدحداحة الأنصاري، مذكور فِي الصحابة، لم يُوقَف على اسمه ولا نسبه أكثر من أَنَّهُ من الأنصار، وقيل: مات في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن له ولد، فأعطى النبي صلى الله عليه وسلم ميراثه ابن أخته أبا لبابة بن عبد المنذر، وقيل: عاش إلى أيام معاوية، يراجع: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ٥/ ٩٦، ط: دار الفكر–١٩٨٩م، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٧/ ١٠٠، ط: دار الكتب العلمية.

(٥)ـ أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٣٢٤ في كتاب المناقب، باب ما جاء في أبي الدحداح، وقال: رواه أبو يعلى والطبراني، ورجالهما ثقات، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح، ط: مكتبة القدسي– القاهرة– ١٩٩٤م، ت: حسام الدين القدسي.

وأيضًا فإنه لا يُستفهَم إلا إذا كان المقام ذا شأن وخطر.

وفي الاستفهام ما فيه من التحضيض والتهييج على الاتصاف بالخير؛ كَأَنَّ الْمُسْتَفْهِمَ لا يدري مَنْ هو أهل هذا الخير والجدير به، قَالَ طَرَفَةُ(١):

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتًى خِلْتُ أَنَّنِي ... عُنِيتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدِ(٢)

وقد جمع هنا أيضًا بين الإشارة والموصول فقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى﴾، وفي ذلك بيان لعلو شأن من يبذل، إذ تدل على أن المخاطَب له شأن جليل إلى درجة أن يُشار إليه، ويتحدث عنه؛ فإنه إنما يقال: مَنْ ذَا الذي يفعل كذا؟ في الأمر الذي يَنْدُرُ أَنْ يُقْدِمَ عليه أحد؛ يقال مثلاً: مَنْ ذَا يَتَطَاوَلُ إلى الْمَلِكِ فُلَانٍ؟ أَوْ مَنْ ذَا الذي يعمل هذا العمل وله كذا؟ إذا كان عظيمًا أو شَاقًّا يَقِلُّ مَنْ يَتَصَدَّى له.(٣)

(المسألة الثالثة): أصل القرض في اللغة: القطع، سُمِّيَ به القرض؛ لأن الشخص يَقْطَعُ مِنْ ماله شَيْئًا يُعْطِيهِ لِيَرْجِعَ إليه مثله.

وإنما سمَّى الله تعالى ذكره المبذول في سبيله قرضًا؛ لأنه لمّا كان إعطاء مَن أعطى أهلَ الحاجة والفاقة في سبيل الله ابتغاءَ ما وعده الله عليه من جزيل الثواب عنده يوم القيامة، سماه قرضا، وهو تأسيس وتقريب للناس بما يفهمونه من شَبَهِ القرض بالعمل للثواب، والله هو الغني

---

(١)ـ هو أبو عمرو طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي، شاعر جاهلي، ولد في بادية البحرين نحو ٨٦ قبل الهجرة، وتنقل في بقاع نجد، واتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه، ثم أرسله بكتاب إلى المكعبر (عامله على البحرين وعمان) يأمره فيه بقتله، لأبيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بها، فقتله المكعبر شابًّا نحو ٦٠ قبل الهجرة وهو ابن ست وعشرين، وأشهر شعره معلقته، وقد شرحها كثيرون من العلماء، يراجع: المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي، ط: دار الجيل-بيروت، ط١: ١٤١١هـ

(٢)ـ يراجع: ديوان طرفة بن العبد ص ٢٤، ط: دار الكتب العلمية، ط٣: ١٤٢٣هـ، ت: مهدي محمد ناصر الدين

(٣)ـ يراجع: تفسير المنار للشيخ محمد بن رشيد بن علي رضا القلموني ٢/ ٣٦٦، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب-١٩٩٠م، وزهرة التفاسير لأبي زهرة محمد بن أحمد بن مصطفى ٢/ ٨٧٢، ط: دار الفكر العربي.

الحميد.(١)

فالقرض على هذا مجاز عن البذل لأجل الجزاء، وهو بهذا المعنى شامل لبذل النفس والجسم رجاء الثواب.

وقيل: في الآية اختصار؛ أي: مَنْ ذَا الذي يُقْرِضُ عباد الله والمحتاجين من خلقه، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ سورة الأحزاب: ٥٧، أي: يؤذون عباد الله تعالى، وفي معنى هذا قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، استطعمتك فلم تطعمني، قال: يا رب، كيف أُطعمك وأنت رب العالمين؟! قال: استطعمك عبدي فلان فلم تُطعمه، أَمَا عَلِمْتَ أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي."(٢)

ويقول الفخر الرازي رحمه الله: "الاختلاف بين هذا الإنفاق المسمى قرضًا والقرض من وجوه: أحدها: أن القرض إنما يأخذه من يَحتاج إليه لفقره، وذلك في حق الله تعالى محال، وثانيها: أن البدل في القرض المعتاد لا يكون إلا المثل، وفي هذا الإنفاق هو الضعف، وثالثها: أن المال الذي يأخذه المستقرض لا يكون ملكًا له، وهاهنا المال المأخوذ ملك لله.

ثم مع ذلك سمّاه الله قرضًا، والحكمة فيه التنبيه على أن ذلك لا يضيع عند الله تعالى، فكما أن القرض يجب أداؤه ولا يجوز الإخلال به، فكذا الثواب الواجب على هذا الإنفاق واصل إلى المكلَّف لا محالة."(٣)

(المسألة الرابعة): وصف الله تعالى هذا القرض بالحُسن، والقرض الحَسن قد تنوعت عبارة المفسرين عنه، فقيل: هو الذي تطيب فيه النية، أو هو الحلال الخالص الذي لم يختلط به حرام،

(١)ـ يراجع: جامع البيان ٥/ ٢٨٢، ومعالم التنزيل ١/ ٢٩٤، والمحرر الوجيز ١/ ٣٢٩ـ.

(٢)ـ رواه الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل عيادة المريض، حديث رقم ٢٥٩٦ـ.

(٣)ـ مفاتيح الغيب ٦/ ٥٠٠ ـ.

أو الذي لا يتبعه المن والأذى، أو غير المصحوب بالرياء، ويشبه أيضًا أن يكون هذا إشارة إلى كثرته وجودته، أو القرض الحسن هو مَا حَلَّ مَحَلَّهُ ووافق المصلحة، فمن الناس مَن ينفق في المصالح بنية حسنة، ولكن بدون بصيرة تُرِيهِ مواطن المنفعة بنفقته، فيبني مسجدًا حيث تكثر المساجد، فيكون سببًا في زيادة تَفَرُّقِ الجماعة، أو يبني مدرسة ويضع فيها معلمين فاسدي الاعتقاد أو الآداب، فيفسدون ولا يصلحون، فمثل هذا كله لا يُقال له قرض حسن، وإنما يكون الإنفاق قرضًا حسنًا إذا وُضع موضعه مع البصيرة وحسن النية.(١)

والذي يظهر لي أنه شامل لكل هذه المعاني السامية.

(المسألة الخامسة): اختلف القراء في تشديد العين وتخفيفها، ورفع الفاء ونصبها، وإسقاط الألف وإثباتها من قوله تعالى﴿ فَيُضَٰعِفَهُۥ ﴾، فقرأ ابن كثير "فيضعّفه" برفع الفاء من غير ألف وتشديد العين في جميع القرآن، وقرأ ابن عامر كذلك إلا أنه نصب الفاء في جميع القرآن، ووافقه عاصم على نصب الفاء إلا أنه أثبت الألف في "فيضاعفه" في جميع القرآن، وكان أبو عمرو لا يسقط الألف من ذلك كله إلا من سورة الأحزاب في قوله تعالى:﴿ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ سورة الأحزاب: ٣٠، وقرأ حمزة والكسائي ونافع ذلك كله بالألف ورفع الفاء.(٢)

فالرفع في الفاء يتخرج على وجهين: أحدهما العطف على ما في الصلة، وهو ﴿يُقۡرِضُ﴾، والنصب على أنها واقعة في جواب الاستفهام الذي هو بمعنى التحضيض بإضمار أن.(٣)

والتضعيف والإضعاف والمضاعفة واحد، وهو الزيادة على أصل الشيء حتى يبلغ مثلين أو

(١)-يراجع: جامع البيان ٥/ ٢٨٢، والمحرر الوجيز ١/ ٣٢٩، ومفاتيح الغيب ٦/ ٥٠٠، وتفسير المنار ٢/ ٣٦٦، وزهرة التفاسير ٢/ ٨٦٨.

(٢)-يراجع: السبعة في القراءات لأبي بكر أحمد بن مجاهد ١/ ١٨٤، ط: دار المعارف- مصر، ت: د/ شوقي ضيف.

(٣)-يراجع: البحر المحيط ٢/ ٥٦٥.

أكثر.[١]

(المسألة السادسة): ذكر الله تعالى أن هذه الأضعاف كثيرة لا يعلم كنهها إلا الله تعالى، وَإِنَّمَا أَبْهَمَ تعالى ذلك؛ لأن ذِكْرَ الْمُبْهَمِ في باب الترغيب أقوى من ذكر المحدود.

وهذا الجزاء الأوفى حاصل في الآخرة، وهي الغاية القصوى لكل مؤمن؛ وإن فيها للذين أحسنوا الحسنى وزيادة، وهو مع ذلك حاصل في الدنيا، فالمضاعفة لفعل الخير في هذه الحياة تبدو لكل من يفهم معاني الحياة، وإن هذا الجزاء الدنيوي هو العيش العزيز، والحياة الكريمة للمنفق ولقومه، ودفع الهلاك عن أمته؛ وعزة الأمة؛ لأنه لَا عزة لأمة لَا تدفع المتربة عن آحادها وتذل فقراءها؛ والبذل في سبيل الله والإنفاق في سبيل الخير والنفع العام والمصالح الإنسانية يلقي في النفس سعادة واطمئنانًا لَا يشعر بهما إلا الأبرار؛ وإن الله يبارك في رزق الذين ينفقون، فوق غنى النفس الذي تمتلئ به؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم: "ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس."[٢]

فالبذل والعطاء في سبيل الخير يدفع ضرًا، ويقي من شر، ويحمي الجماعة من الآفات، ويسعد النفس، ويبارك في رزق المعطي، ويكثر قوى الإنتاج في الأمة، فتقوى الأيدي كلها على العمل، فيعم الخير، وتكثر الثمرة، ويكون الإنتاج الطيب الذي يعم ولا يخص، فمن أعطى قليلا يأخذ كثيرًا في نفسه وقومه وأهله وعشيرته.

ولو سِرْنَا في الأرض وَسَبَرْنَا أحوال الأمم الحاضرة، وعرفنا تاريخ الأمم الغابرة، لرأينا كيف ماتت الأمم التي قَصَّرَتْ في هذه الفريضة، وكيف عَزَّتِ الأمم التي شَمَّرَتْ فيها وَسَعِدَتْ!!!

(١)ـ يراجع: جمهرة اللغة لأبي بكر بن دريد ٢/ ٩٠٣، ط: دار العلم للملايين- بيروت، ط١: ١٩٨٧م، ت: رمزي منير بعلبكي.

(٢)ـ رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس، حديث رقم ٦٦٤٦ـ

ومن العجب أن يكون المسلمون اليوم أجهل الأمم والشعوب بهذه السنة الإلهية وهم يتلون كتاب الله آناء الليل وأطراف النهار، ولا تتحرك قلوبهم، ولا تنبسط أيديهم عند تلاوة آياته الحاثّة على بَذْلِ المال في سبيله، ولا سِيَّمَا هذه الآية التي لو أُنزلت على جبل لرأيته مُتَصَدِّعًا من هَيْبَةِ الله تعالى والحياء منه.(١)

(المسألة السابعة): القبض معناه: جمع اليد على الشيء، ويقال حينئذ: قَبَضتْه اليد، ويقال: قبض عنه يده، أي جمعها قبل تناوله، وذلك يقال فيه: إنه إمساك عنه، ويقال لإمساك اليد عن البذل: قبض، ومن ذلك قوله تعالى:﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ سورة التوبة: ٦٧، أي يمتنعون عن الإنفاق؛ ولذلك أطلق القبض على المنع، والبسط على العطاء.(٢)

والبسط: معناه النشر والتوسعة، وبَسْطُ الرزق: التوسعة فيه، والبسطة في الجسم: أن يكون مديد القامة، وذلك كناية عن القوة؛ والبسط: المد، وقد يطلق ويراد به الصولة والقوة، كما يراد به الإعطاء.(٣)

وقد ذكر سبحانه هنا أن الأرزاق كلها بيد الله، فعلى كل امرئ أن يعرف أن الغنى ليس بالعمل فقط، بل بتوفيق الله تعالى وتقديره وهو العزيز العليم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ﴾ يعني أنه تعالى بيده قبض أرزاق العباد وبسطها، فهو سبحانه يقتر بقبضه الرزق عمن يشاء من خلقه، ويوسع ببسطه الرزق على من يشاء منهم، ومناسبة هذا لما قبله من وجوه: أحدها: أن الإنسان إذا علم أن القبض والبسط بالله، بقي اعتماده عليه، فحينئذ يسهل عليه إنفاق المال في

(١)ـ مفاتيح الغيب ٦/ ٥٠١، وتفسير المنار ٢/ ٣٦٦، وزهرة التفاسير ٢/ ٨٦٨.

(٢)ـ يراجع: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ١/ ٦٥٢، ط: دار القلم- دمشق، ت: صفوان عدنان، ولسان العرب لابن منظور ٧/ ٦٩، ط: دار صادر-بيروت.

(٣)ـ يراجع: تاج اللغة وصحاح العربية المعروف بالصحاح للجوهري أبي نصر إسماعيل بن حماد ٣/ ١١١٦، ط: دار العلم للملايين- بيروت، ط٤: ١٤٠٧هـ، ت: أحمد عبد الغفور عطار، والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ١/ ١٢٢.

سبيل مرضاة الله، وثانيها: أنه تعالى لمّا أمر بالصدقة وحثّ عليها، أخبر أنه لا يمكن العباد ذلك إلا بتوفيقه وإعانته، فهو الذي يقبض بعض الأيدي عن البذل، وَيَبْسُطُ بَعْضَهَا بالفضل.

وقد يقول قائل: إن الحكمة الإلهية قد اقتضت أن كل عمل له نتائجه وثمراته، والغنى والفقر ثمرتان للعمل والكسل، فمن عمل واتخذ الأسباب وسار فيها نال الثمرة، ومن أهمل ناله الفقر ولا يلومنَّ إلا نفسه، وقد تكرر في القرآن أن الله القابض الباسط الرازق، وأنه يرزق من يشاء، فكيف يوفق القارئ بين ذلك السنن الحكيم، وبين ذلك القول الكريم؟

والجواب عن ذلك أن على كل مؤمن أن يعمل، وأن يجدَّ ويجتهد، وعليه فوق ذلك أن يعلم أن الله هو الرازق، وأنه فوق كل شيء، وأنه القابض الباسط، وأنه الرزاق ذو القوة المتين.

وإن المستقرئ لشئون الناس وأعمالهم في الحياة ونتائجها ينتهي به الاستقراء إلى أن الرزق لَا يمكن أن يجيء ثمرةً للعمل وحده، بل إنه يجيء مع العمل توفيق الله، ومصادفات قدَّرها العليمُ الخبير، اللطيف البصير، فاثنان يعملان عملا واحدًا، فيلقيان البذر بعد الحرث، ومع البذر السِّماد، والأرض طيبة منتجة، والري متحد الزمان في كليهما، ولكن زرع أحدهما قد يبتلى بآفة تستمكن منه فتبيده أو تكاد، ولا تصيب زرع الآخر إلا قليلا، وقد تكون الثمرات متحدة في النتائج والمقدار، ولكن أحدهما سارع بالبيع، فصادف غلاء، والثاني أخّر في البيع فصادف كسادًا، وقد يبيع هذا لتاجر حسن الأداء، والثاني يبيع لآخر مثله، ولكنه قبل الأداء يصاب في تجارته، وهكذا، فاتخاذ الأسباب أمر لا بد منه، ولكن وراء الأسباب القدرة القاهرة التي هي فوق كل شيء، وهي قدرة الله تعالى، فاتحاد الأسباب لَا يستدعي اتحاد المصادفات ولا اتحاد الفرص؛ واتحاد الفرص المهنية لَا يوجب اتحاد الثمرات والنتائج، فقد تكون ثمة ملابسات لم تكن في الحسبان، وما كان يستطيع تقديرها إنسان، وإن تقدير الإنسان مهما يكن قويًّا هو في دائرة القدرة الإنسانية، وهي محدودة الأفق، محدودة الغاية، وإن كان له سلطان على الأعمال فليس له سلطان على النتائج

والأحوال، ومن هنا كان الواجب على المؤمن أن يعمل ثم يفوض أمره إلى الله، ويقول: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ سورة غافر: ٤٤

وإذا كان الرزق بيد الله فعلى الغني أن يعلم أن ما بيده فيض من الله تعالى القدير؛ وإذا كان فيضًا من الكريم الحليم فعليه أن يشكر لله بإنفاقه في الحلال دون الحرام، وفي إنفاقه على عيال الله، وهم الفقراء الذين اقتضت حكمته تعالى أن يحرمهم مما أعطاه، وفي سبيل النفع العام الذي يقيم دولة إسلامية فاضلة، بها يعتز دين الله، وبها تعلو كلمته، وبها يحق الله الحق ويبطل الباطل، وبها تعتز الفضيلة وتعلو الإنسانية، وعليه أن ينفق مال الله الذي أعطاه في سبيل نصرة دينه وإعلاء كلمته.

ولقد علم الأتقياء الأبرار في كل العصور أن الأسباب مهما تكن قوية محكمة فإن النتائج بيد الله تعالى، ولهذا المعنى بذلوا ما بذلوا في نصرة دين الله تعالى.

وأما الآن فقد صار الهوى متبعًا، والشح مطاعًا، وتشنعت الفتن، وتحكمت الإحن، وغلبت على المسلمين الشقوة، وضربت عليهم الذلة، حتى إنه ليقتطع من جسم العالم الإسلامي قطعة هي منه بمنزلة الكبد من الجسم، والأعداء يسلطون على المشردين والمقيمين في الوادي المقدس الفقر والجوع، ويحاولون إخراجهم بالجوع والعرى من دينهم، والمسلمون يرون ويسمعون، وهم في غفلة لاهون![(١)]

وقد اختلفوا في السين والصاد من ﴿وَيَبۡصُۜطُ﴾، و﴿ بَسۡطَةٗ ﴾ سورة البقرة: ٢٤٧، و﴿ٱلۡمُصَۜيۡطِرُونَ﴾ سورة الطور: ٣٧، و﴿ بِمُصَيۡطِرٍ ﴾ سورة الغاشية: ٢٢، فقرأ ابن كثير (ويبسط، وبَسْطَةً، والمسيطرون) كل ذلك بالسين، (وبِمُصَيْطِرٍ) بالصاد.

وقرأ نافع: (وَيَبْصُطُ، وبصطة، والْمُصَيْطِرُونَ، وبِمُصَيْطِرٍ) بالصاد، كأن الأصل فيها تفخيم

(١)ـ يراجع: جامع البيان ٥/ ٢٨٢، والكشاف ١/ ٢٩٠، ومفاتيح الغيب ٦/ ٥٠١، وزهرة التفاسير ٢/ ٨٦٨ وما بعدها.

السين لمجاورة الطاء، وعن الكسائيّ أنه قرأ ذلك كلّه بالسين، وعنه: بالصاد، إلا (بَسْطَةً) في البقرة، فإنها بالسين.

وعن نافع: لا تبالي كيف قرأت بالصاد أو بالسين.

وقرأ حفص عن عاصم في الأعراف: (بسطة)، وفي البقرة بالسين (ويبسط).

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائيّ: (ويبسط، وبَسْطَةً) بالسين، وقرأوا: (الْمُصَيْطِرُونَ، وبِمُصَيْطِرٍ) بالصاد، وأشمّ حمزة الصاد الزاي فيهما.[١]

(المسألة الثامنة): قوله تعالى: ﴿ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ أي: إلى الله معادكم وقد جُردتم من كل قوة قاهرة، وكل سلطان ظاهر، فاتقوا الله في أنفسكم أن تضيعوا فرائضه، وهو خَبَرٌ مُسْتَعْمَلٌ في التنبيه والتذكير بأن ما أُعِدَّ لهم في الآخرة من الجزاء على الإنفاق في سبيل الله تعالى أعظم مما وُعدوا به من الخير في الدنيا، وفيه تعريض بأن الممسك عن الإنفاق في سبيل الله تعالى محروم من خير كثير.

وتقديم الجار والمجرور فيه للدلالة على كمال سلطان الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة، وأنه لا سلطان لأحد سواه، ولا مرجع إلا إليه.[٢]

(١)-يراجع: الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي ٢/ ٣٤٦، ط: دار المأمون للتراث- دمشق، ط١٤١٣:٢هـ، ت: بدر الدين قهوجي وبشير جويجاني.

(٢)-يراجع: جامع البيان ٥/ ٢٨٢، ومعالم التنزيل ١/ ٢٩٤.

المبحث الثاني

ارتباط (من ذا الذي) بالبذل في الجهاد

تبين مما سبق ارتباط الاستفهام بقوله تعالى: (من ذا الذي) هنا بمقام البذل في الجهاد؛ حثًّا لأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم على البذل ببيان بأن الباذل يرتقي المقامات الشريفة التي تتوجه إليها مدْحَةُ الله تعالى وكريمُ وعده، ففي الاستفهام ما فيه من التحضيض والتهييج على الاتصاف بالخير؛ كَأَنَّ الْمُسْتَفْهِمَ لا يدري مَنْ هو أهل هذا الخير والجدير به!!!

ولقد تحدثت آيات قرآنية عن فضل الإنفاق في الجهاد؛ ومن تلك الآيات:

قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ سورة الأنفال: ٦٠، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ سورة التوبة: ٩١، وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ سورة التوبة: ٩٨-٩٩، وقال تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾ سورة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: ٣٨، وقال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ سورة الحديد: ١٠

وتحدثت السنة الشريفة أيضًا عن فضل الإنفاق في الجهاد، فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم: "من جهَّز غازيًا في سبيل الله فقد غزا، ومن خَلَفَ غازيًا في سبيل الله بخيرٍ فقد غزا."(١)

وقال صلى الله عليه وسلم: "من أنفق زوجين في سبيل الله؛ دعاه خزنة الجنة، كُلُّ خزنة بابٍ: أي فُلُ هَلُمَّ، قال أبو بكر ت ١٣ هـ رضي الله عنه: يا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ذلك الذي لا تَوَى عليه! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنِّي لأرجو أنْ تكون منهم."(٢)

وقال ابن عباس ت ٦٨هـ رضي الله عنهما: "إن لم يجد الرجل شيئًا إلا مِشْقَصًا فليُجَهِّزْ به في سبيل الله، ولا تقولن: لا أجد شيئًا."(٣)

فمساعدة المجاهدين بالمال وغيره من الوسائل في كل مكان، ليقاتلوا عن دينهم وأرضهم وأعراضهم، ومساعدة أهليهم ورعايتهم والإنفاق عليهم.. كل ذلك من أعظم الأعمال عند الله تعالى.

الباذل دون تعيينٍ لوجوه بذله:

ومن أخرج شيئًا في سبيل الله، فإمَّا أن يُعيِّن فيقول: يوضع في كذا، يذكر وجهًا من وجوه البرِّ؛ صدقةً أو جهادًا أو حَجًّا، وما أشبه ذلك، وإمّا أن يُطلق؛ فيقول: هذا في سبيل الله، ولا يزيد على ذلك، فإن كان عَيَّن، فهو على ما سمَّى، لا يحتمل ذلك خلافًا، ولا يسوغ فيه، وإن أطلق ولم تكن له نيَّة، أو كانت فلم تُعْلم؛ لأنه مات، أو غاب، وما أشبه ذلك، فقيل: إنَّ إطلاق هذا القولِ وعُرْفَه يقتضي الجهاد، فهو يُحملُ عليه، فيكون مَصْرَفُه إلى أهلِ القتال، وفي وجوه الحرب، لا يتعدَّى به

(١)- رواه البخاري بسنده عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه، كتاب الجهاد والسير، باب من جهز غازيًا أو خلفه بخير، رقم ٢٨٤٣.

(٢)- رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الجهاد والسير، باب فضل النفقة في سبيل الله تعالى، رقم ٢٨٤١، وقوله: (أي فُل): نداء مخصوص، كما تقول: أي هذا، يقال: فلانٌ وفُلُ، لُغتان، وقوله: (لا تَوَى عليه)، أي: لا هلاك عليه، فتح الباري ٦/ ٤٩.

(٣)- جامع البيان ٣/ ٥٨٥ .

ذلك؛ رُوِي هذا عن مالكٍ ت ١٧٩ هـ والشافعيّ ٢٠٤هـ رضي الله عنهما(١)، وغيرهما.

وقد يحتمل أن يقال: إنه سائغٌ أن يوضع في الأهمّ فالأهمّ من وجوه البرّ، جهادًا كان أو غيره؛ لأن ذلك كله في سبيل الله، ويدلُّ على هذا قوله صلى الله عليه وسلم: "من أنفق زوجين في سبيل الله ...(٢)، ثم ذكر الصلاة والجهاد والصدقة والصيام.(٣)

جعائل الغزو:

رخَّص العلماء في جعائل الغزو بما رُوي أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "للغازي أجره، وللجاعل أجره وأجر الغازي."(٤)

وقال مجاهد ت١٠٤ه رضي الله عنه: "قلت لابن عمر ت٧٣هـ رضي الله عنهما: أُريد الغزو، قال: إنِّي أُحِبُّ أنْ أُعينكَ بِطائفةٍ من مالي، قلتُ: قد أَوْسَعَ الله عليَّ، قال: إنَّ غناك لك، وإني أحبُّ أن يكون من مالي في هذا الوجه."(٥)

وقال أبو حنيفة ت ١٥٠هـ رضي الله عنه: "تُكره الجعائل ما كان للمسلمين قوّة، وكان في بيت المال ما يَفي بذلك، فأمَّا إذا لم تكن بهم قوةٌ ولا مال؛ فلا بأس أن يجهّز بعضهم بعضًا، يجعل

---

(١)- يراجع: المدونة للإمام مالك ١/ ٥٧٣ وما بعده، ط: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤١٥ه، والأم للإمام الشافعي ٤/ ٩٨، ط: دار المعرفة- ١٤١٠هـ.

(٢)- سبق تخريجه ص ١٥٢.

(٣)- يراجع: الإنجاد في أبواب الجهاد وتفصيل فرائضه وسننه وذكر جمل من آدابه ولواحق أحكامه لأبي عبد الله محمد بن عيسى بن محمد بن أصبغ الأزدي القرطبي ت: ٦٢٠هـ ١/ ١٢٢، ط: مؤسسة الريان، ت: مشهور بن حسن ومحمد بن زكريا أبو غازي.

(٤)- رواه أبو داوود في سننه بسنده عن عبد الله بن عمرو رضيَ الله عنهما، كتاب الجهاد، باب الرخصة في أخذ الجعائل، رقم ٢٥٢٦، وقال الصنعاني: رواته ثقات، فتح الغفار الجامع لأحكام سنة نبينا المختار للحسن بن أحمد الصنعاني ت ١٢٧٦هـ ٤/ ١٧٤٤، ط: دار عالم الفوائد، ط١: ١٤٢٧هـ.

(٥)- ذكره الإمام البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب الجعائل والحُملان في السبيل.

القاعد للناهض."[1]

ورُوي عن الإمام مالكٍ ت ١٧٩ هـ رضي الله عنه أنه قال: "لا بأس بالجعائل، ولم يزل الناس يتجاعلون بالمدينة عندنا، وذلك لأهل العطاء."[2]

وقال الشافعي ت ٢٠٤هـ رضي الله عنه: "ولا بأس أن يأخذ الجعائل من السلطان دون غيره؛ لأنه يغزو بشيءٍ من حقه."[3]

وبالجملة فالذي عليه الجماعة من أهل العلم أن الانبعاث إذا كان لله؛ لم يكن بالمعاونةِ على ذلك والجُعْل فيه بأسٌ، بل كلاهما مأجور، وإذا كان انبعاثه إنما هو لما يعطاه، لا غَرَض له غير ذلك؛ فهو أجير يَسفِك دمه على غير وجه الشرع.

وأما إن كان غنيًّا فأُعطي كذلك من غير مسألة، فمن العلماء من كره له ذلك، وإليه ذهب مالكٌ، وهو الأَوْلَى؛ لأنه قادرٌ على الغزو بماله، فلم يكن له اضطرارٌ في إقامة تلك العبادة إلى ما أعطي مثل ما كان للفقير.

ومنهم من قال: لا بأس أن يَقْبل -وهم الأكثر- قالوا: فإن احتاج إليه أَنْفَقَه، وإن استغنَى عنه فرَّقه في سبيل الله.

ولم يختلفوا أنَّ المسألة في ذلك للغنيِّ والفقير مكروهة[4]، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

---

(١)- السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني ١/ ٨٦، ط: الدار المتحدة للنشر.

(٢)- المدونة ١/ ٥٢٧ .

(٣)- الأم ١/ ٢٦٩ .

(٤)- يراجع: الإنجاد في أبواب الجهاد ١/ ١٢٦ وما بعدها .

الفصل الثالث

قوله تعالى: (مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ)

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: (مسائل الآية الكريمة)

المبحث الثاني: ارتباط (من ذا الذي) بمقام الشفاعة

المبحث الأول: في مسائل الآية الكريمة

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ سورة البقرة:٢٥٥

(المسألة الأولى): هذه هي أعظم آية في كتاب الله تعالى؛ فعن أُبَيِّ بن كعب ت ٢١هـ رضي الله عنه أنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا المنذر، أي آية في كتاب الله أعظم؟ قلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾، فَضَرَبَ في صدري، ثم قال: لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أبا المنذر."[١]

ولعل السر في كون هذه الآية هي أعظم آية في كتاب الله تعالى ما قاله الفخر الرازي رحمه الله: "إن الذكر والعلم يتبعان المذكور والمعلوم، فكلما كان المذكور والمعلوم أشرف، كان الذكر والعلم أشرف، وأشرف المذكورات والمعلومات هو الله سبحانه، بل هو متعال عن أن يقال: إنه أشرف من غيره؛ لأن ذلك يقتضي نوع مجانسة ومشاكلة، وهو مقدس عن مجانسة ما سواه، فلهذا السبب فكل كلام اشتمل على نعوت جلاله وصفات كبريائه فإنه يكون في نهاية الجلال والشرف، ولمَّا كانت هذه الآية كذلك، لا جرم كانت هذه الآية بالغة في الشرف إلى أقصى الغايات وأبلغ

(١)- رواه الإمام مسلم بسنده عن أبي بن كعب رضي الله عنه، كتاب الصلاة، باب فضل الله لا إله إلا هو الحي القيوم، حديث رقم ١٨٣٧، ومعنى: ليهنك العلم: أي ليكن العلم هنيئًا لك، يراجع: شرح الإمام النووي على صحيح الإمام مسلم ٦/ ٩٣، ط: دار إحياء التراث، ط٢: ١٣٩٢هـ.

النهايات."[١]

وكما ترى فإن الفخر قد أجمل الحديث -على غير عادته في كتابه النافع- بقوله: إن الآية اشتملت على نعوت الجلال وصفات الكبرياء، وتفصيل ذلك أنها تضمنت من صفات الذات: الوحدانية، وذلك قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾، والحياة، والقدرة، وذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾، ثم استطرد من القيومية لانتفاء ما يؤول إلى العجز، وهو ما يعرض للقادر -غيره تعالى- من الغفلة والآفات، فينتفي عنه وصفه بالقدرة إذ ذاك، واستطرد من القيومية الدالة على القدرة إلى ملكه وقهره وغلبته لما في السموات والأرض؛ إذ الملك من آثار القدرة؛ إذ للمالك التصرف في المملوك، كما تضمنت الآية من الصفات أيضًا: صفة الإرادة، وذلك قوله تعالى:﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾؛ فإنه دالٌّ على الاختيار والإرادة، كما تضمنت صفة العلم بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾.

فلمَّا تضمنت أمهات المسائل الإلهية المتعلقةِ بالذات العليةِ والصفاتِ الجلية، واندرج معها شيء من صفات الفعل، ودلت على تنزهه تعالى عن التغير والفتور، تفردت بفضائلَ رائقةٍ، وخواصَّ فائقة، فكانت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(المسألة الثانية): مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى ذكر أنه فضَّل بعض الأنبياء على بعض، وأن منهم مَن كلَّمه، وأنه رفع بعضهم درجات -وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم- ونص على عيسى عليه السلام -وتفضيل المتبوع يُفهَم منه تفضيل التابع- وكانت اليهود والنصارى قد أحدثوا بدعًا في أديانهم وعقائدهم، واتخذ العرب من دون الله آلهة وأشركوا، فصار جميع الناس المبعوث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على غير استقامة في شرائعهم وعقائدهم!!!

ثم أمر الله تعالى بالإنفاق في سبيله قبل أن يأتي يوم لا كسب فيه، ولا يُنْجِي من عقابه فيه

(١)- مفاتيح الغيب ٧/ ٤.

شفاعة ولا فداء.

ومن هنا أتت هذه الآية العظيمة دالَّةً على إفراد الله بالوحدانية، ومتضمنة صفاته العلى؛ من الحياة، والملك، وسعة العلم، والعلو والعظمة؛ لينبه بذلك على العقيدة الصحيحة التي هي محض التوحيد، وعلى طرح ما سواها، وليشعر المتدبر بعظيم سلطانه تعالى، ووجوب الشكر له، والإذعان لأمره، والوقوف عند حدوده، وَبَذْلِ المال في سبيله.(١)

(المسألة الثالثة): قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ هو الجملة السامية الأولى من الجمل العشر التي اشتملت عليها الآية الكريمة، ولفظ الجلالة (الله) قال العلماء: إن أصله إله، دخلت عليه أداة التعريف "أل"، وحذفت الهمزة، فصارت الله، وهي بهذا المعنى تفيد التعريف بأنه وحده هو الإله، فهي تتضمن معنى الألوهية المنفردة، وتفيد معنى استحقاق العبادة، ومعنى الوحدانية، ومعنى الكمال كله.

وإن ذلك المعنى المفهوم من لفظ الجلالة وأصل اشتقاقه قد صُرِّح به في هذه الآية الكريمة، فقد قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فهو تصريح بما فهم ضمنًا مما قبله، ومعناه لا معبود بحق إلا هو.(٢)

(المسألة الرابعة): الله تعالى حي بذاته، كما وصف نفسه، والكل حي به؛ فالحياة التي يوصف بها الله تعالى هي حياة ذاتية لم تأت من مصدر آخر، كحياة الخلائق المكسوبة الموهوبة لها من الخالق، ومن ثم يتفرد الله تعالى بالحياة على هذا المعنى، كما أنها حياة أزلية أبدية لا تبدأ من مبدأ ولا تنتهي إلى نهاية، فهي متجردة عن معنى الزمان المصاحب لحياة الخلائق المكتسبة المحددة البدء والنهاية، ثم إنها مطلقة من الخصائص التي اعتاد الناس أن يعرفوا بها الحياة، فالله

---

(١)- يراجع: جامع البيان ٥/ ٣٨٦، والبحر المحيط ٢/ ٦٠٧، ونظم الدرر ٤/ ٢٩، وتفسير المنار ٣/ ٢٠.

(٢)- يراجع: جامع البيان ٥/ ٣٨٦، والمفردات في غريب القرآن ١/ ٨٢، وزهرة التفاسير ٢/ ٩٣١ .

تعالى ليس كمثله شيء.[١]

يقول الفخر رحمه الله: "المفهوم الأصلي من لفظ الحي: كونه واقعًا على أكمل أحواله وصفاته."[٢]

(المسألة الخامسة): ﴿ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ معناه أنه القائم على كل شيء بما يجب له، ونظيره من الآيات قوله تعالى:﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾ سورة الرعد: ٣٣، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ سورة فاطر: ٤١[٣]

(المسألة السادسة): قوله تعالى﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾: يعني: لا يأخذه نعاس -وهو النوم الخفيف، والوسنان بين النائم واليقظان- ولا نوم ثقيل مزيل للقوة والعقل، أو: لا تحله الآفات، ولا تناله العاهات، وذلك أن السنة والنوم معنيان يغمران فهم ذي الفهم، ويزيلان من أصاباه عن الحال التي كان عليها قبل أن يصيباه، فتأويل الكلام أنه تعالى لا يغيره ما يغير غيره، ولا يزيله عما لم يزل عليه تنقل الأحوال وتصريف الليالي والأيام، بل هو الدائم على حال، والقيوم على جميع الأنام.[٤]

فإن قيل: إذا كانت السنة عبارة عن مقدمة النوم، فإذا قال: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ﴾، فقد دل ذلك على أنه لا يأخذه نوم بطريق الأولى، وكان ذكر النوم تكريرًا!!!

قيل: تقدير الآية: لا تأخذه سنة فضلاً عن أن يأخذه النوم، أو هو على ترتيب الوجود، وذلك الترتيب الطبيعي يعطي للقارئ صورة حية للتالي لكتاب الله تعالى، إذ يتصور الذين يعرض لهم

---

(١)- يراجع: جامع البيان ٥/ ٣٨٧، والبحر المحيط ٢/ ٦٠٨، ونظم الدرر ٤/ ٢٩.

(٢)- مفاتيح الغيب ٧/ ٩.

(٣)- يراجع: جامع البيان ٥/ ٣٨٧، والبحر المحيط ٢/ ٦٠٨، ونظم الدرر ٤/ ٢٩.

(٤)- يراجع: جامع البيان ٥/ ٣٩٣، ومعالم التنزيل ١/ ٣١٢، وتفسير القرآن العظيم ١/ ٦٧٨.

النوم كيف يبتدئ بالسنة ثم النعاس ثم النوم، وإذا تصور ذلك المنظر الطبيعي تصور معه الضعف الإنساني أمام سلطان النوم بمقدماته، وإذا تصور ذلك تبينت له استحالة ذلك على الله سبحانه وتعالى القوي القادر القاهر لكل شيء، فكان ذلك الترتيب الطبيعي فيه إشارة إلى دليل مانع من أن يوصف المولى العلي القدير بهما.

وفائدة تكرار: (لا) في قوله: ﴿ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾: انتفاؤهما على كل حال؛ إذ لو أسقطت (لا) لاحتمل انتفاؤهما بقيد الاجتماع، تقول: ما قام زيد وعمرو، بل أحدهما، ولا يقال: ما قام زيد ولا عمرو، بل أحدهما.(١)

(المسألة السابعة): قوله تعالى: ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ يعني أنه مالك جميع ذلك بغير شريك ولا نديد، وخالق جميعه دون كل آلهة ومعبود، وبذلك لا تنبغي العبادة لسواه؛ لأن المملوك إنما هو طوع يد مالكه، وليس له خدمة غيره إلا بأمره. يقول: فجميع ما في السموات والأرض ملكي وخلقي، فلا ينبغي أن يعبد أحد من خلقي غيري وأنا مالكه؛ لأنه لا ينبغي للعبد أن يعبد غير مالكه، ولا يطيع سوى مولاه.(٢)

(المسألة الثامنة): لمَّا ثبت أنه تعالى هو الملك والمالك لكل ما سواه، ثبت أن حكمه في الكل جار، ليس لغيره في شيء من الأشياء حكم إلا بإذنه وأمره، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾.

يقول أبو حيان رحمه الله البحر: "وفي هذه الآية أعظم دليل على ملكوت الله وعظم كبريائه، بحيث لا يمكن أن يُقْدِم أحد على الشفاعة عنده إلا بإذن منه تعالى.

---

(١)- يراجع: مفاتيح الغيب ٧/ ١٠، والبحر المحيط ٢/ ٦١٠، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل ١/ ١٥٣، وزهرة التفاسير ٢/ ٩٣٤.

(٢)- يراجع: جامع البيان ٥/ ٣٩٥، ونظم الدرر ٤/ ٣١ .

و﴿ مَن ﴾ رفع على الابتداء، وهو استفهام في معنى النفي، ولذلك دخلت ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، وخبر المبتدأ قالوا: ﴿ ذَا ﴾، ويكون ﴿ ٱلَّذِى﴾ نعتًا لـ ﴿ ذَا﴾ أو بدلاً منه، وعلى هذا الذي قالوا يكون ﴿ ذَا ﴾ اسم إشارة، وفي ذلك بُعد؛ لأن ﴿ ذَا ﴾ إذا كان اسم إشارة وكان خبرًا عن ﴿ مَن ﴾، استقلت بهما الجملة، وأنت ترى احتياجها إلى الموصول بعدها.

والذي يظهر أن ﴿ مَن ﴾ الاستفهامية رُكِّب معها ﴿ ذَا ﴾، وهو الذي يعبر عنه بعض النحويين بقولهم: لغو –ولا يليق هذا اللفظ مع كلمة من كتاب الله، بل يقال: زيادة تأكيد– فيكون ﴿ مَن ذَا﴾ كله في موضع رفع بالابتداء، والموصول بعدهما هو الخبر؛ إذ به يتم معنى الجملة الابتدائية، والعرب تزيد﴿ذَا﴾ لِمَا تَدُلُّ عليه الإشارة من وجود شخص مُعَيَّنٍ يَتَعَلَّقُ به حكم الاستفهام، حتى إذا ظهر عَدَمُ وجوده، كان ذلك أَدَلَّ على أن ليس ثَمَّةَ مُتطَلِّعٍ يُنَصِّبُ نفسه لِادِّعَاءِ هذا الحكم، و﴿عِندَهُۥ﴾ معمول لـ ﴿ يَشۡفَعُ﴾، وقيل: يجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿يَشۡفَعُ﴾، فيكون التقدير: يشفع مستقرًا عنده، وضعف بأن المعنى على يشفع إليه، وقيل: الحال أقوى؛ لأنه إذا لم يشفع من هو عنده وقريب منه، فشفاعة غيره أبعد، و ﴿ بِإِذۡنِهِۦ ﴾ متعلق بـ﴿ يَشۡفَعُ ﴾، والباء للمصاحبة، وهي التي يعبر عنها بالحال، أي: لا أحد يشفع عنده إلا مأذونًا له."(١)

(المسألة التاسعة): لمَّا بيّن أنه يلزم من كونه مالكًا للكل أن لا يكون لغيره في ملكه تصرف بوجه من الوجوه، بيّن أيضًا أنه يلزم من كونه عالمًا بالكل وكون غيره غير عالم بالكل أن لا يكون لغيره في ملكه تصرف بوجه من الوجوه إلا بإذنه، وهو قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾(٢)؛ يعني أنه المحيط بكل ما كان وبكل ما هو كائن علمًا، لا يخفى عليه شيء منه، وهذا كناية عن إحاطة علمه تعالى بسائر المخلوقات من جميع الجهات، وكنى بهاتين الجهتين عن

(١)- البحر المحيط ٢/ ٢٨٨ .

(٢)- مفاتيح الغيب ٧/ ٦.

سائر جهات من أحاط علمه به، كما تقول: ضرب زيد الظهر والبطن، وأنت تعني بذلك جميع الجسد(١)، ويحتمل أن المقصود من هذا الكلام أنه سبحانه عالم بأحوال الشافع والمشفوع له فيما يتعلق باستحقاق العقاب والثواب؛ لأنه عالم بجميع المعلومات لا يخفى عليه خافية، والشفعاء لا يعلمون من أنفسهم أن لهم من الطاعة ما يستحقون به هذه المنزلة العظيمة عند الله تعالى، ولا يعلمون أن الله تعالى هل أذن لهم في تلك الشفاعة، وهذا يدل على أنه ليس لأحد من الخلائق أن يقدم على الشفاعة إلا بإذن الله تعالى.(٢)

(المسألة العاشرة): لما بيّن الله تعالى كمال ملكه وحكمه في السماوات وفي الأرض، بيّن أن ملكه فيما وراء السماوات والأرض أعظم وأجلّ، وأن ذلك مما لا تصل إليه أوهام المتوهمين، فقال تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾

وقد تنوعت الآراء في معنى الكرسي الذي أخبر الله تعالى ذكره في هذه الآية أنه وسع السموات والأرض، فقال بعضهم: الكرسي: هو العرش نفسه، وقال آخرون: إنه دون العرش وفوق السماء السابعة، وقال آخرون: إن المقصود من هذا الكلام تصوير عظمة الله وكبريائه، وتقريره أنه تعالى خاطب الخلق في تعريف ذاته وصفاته بما اعتادوه في ملوكهم وعظمائهم، وقال آخرون: هو مجاز عن علم الله تعالى ذكره، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما، ومنه قيل للصحيفة يكون فيها علم مكتوب: كراسة، ومنه يقال للعلماء: الكراسي؛ لأنهم المعتمد عليهم، كما يقال: أوتاد الأرض، يعني بذلك أنهم الذي تصلح بهم الأرض.(٣)

وأرى أنه إن كان هو العلم الإلهي فالأمر ظاهر، وذلك لدلالة قوله تعالى ذكره: ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ

(١)- جامع البيان ٥/ ٣٩٦، ومعالم التنزيل ١/ ٣١٢، والبحر المحيط ٢/ ٢٨٩، وتفسير القرآن العظيم ١/ ٦٧٩ .

(٢)- مفاتيح الغيب ٧/ ٦.

(٣)- جامع البيان ٥/ ٣٩٧ وما بعدها، ومفاتيح الغيب ٧/ ١١، وإرشاد العقل السليم ١/ ٣١٠.

﴿حِفۡظُهُمَاۚ﴾ على أن ذلك كذلك، فأخبر أنه لا يؤوده حفظ ما علم، وإن كان خَلْقًا آخَرَ فهو من عالم الغيب الذي نؤمن به، ولا نبحث عن حقيقته، ولا نتحدث عنه بالرأي.

(المسألة الحادية عشرة): معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾: أي لا يشق عليه ولا يثقله، يقال: قد آدني هذا الأمر فهو يؤودني أَوْدًا وإيادا.

والهاء والميم والألف في قوله تعالى: ﴿حِفۡظُهُمَاۚ﴾ تعود على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، فتأويل الكلام: وسع كرسيه السماوات والأرض، ولا يثقل عليه حفظ السماوات والأرض، بل هو عليه يسير؛ لأنه لو أثقله لاختل أمرهما ولو يسيرًا، ولقدر غيره ولو يومًا ما على غير ما يريده.(١)

(المسألة الثانية عشرة): ختم الله تعالى هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾؛ أي عالي الرتبة؛ فلا رتبة إلا وهي تحت رتبته، العظيم عظمة تتقاصر عنها الأفهام، المُعظَّم الذي يعظمه خلقه ويهابونه ويتقونه(٢)، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

---

(١)- جامع البيان ٥/ ٤٠٥، ونظم الدرر ١/ ٤٩٨ .

(٢)- جامع البيان ٥/ ٤٠٦ .

المبحث الثاني

ارتباط (من ذا الذي) بمقام الشفاعة

تبين مما سبق أن حُكْم الله تعالى يجري على الجميع؛ فليس لغيره في شيء من الأشياء حكم إلا بأمره، فمقام الشفاعة لا يكون إلا بإذنه، وقد دل بالاستفهام الذي هو في معنى النفي على ذلك، ولذلك دخلت ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، أي: لا أحد يشفع عنده إلا مأذونًا له.

وأصل كلمة الشفاعة: من الشفع، وهو ضم الشيء إلى مثله، خلاف الوَتْر؛ تقول: شَفَعَ الوترَ من العدد شفعًا: صيّره زوجًا، ويقال: ناقة شافع: أي في بطنها ولد، أو يتبعها ولدٌ يشفعها، والشفيع سُمِّي شفيعًا؛ لأنه ثنَّى المستشفِع به، فصار به شفعًا، وجمع شفيع: شفعاء، والمشفِّع: الذي يقبل الشفاعة، والمشفَّع: الذي تُقبل شفاعته، والشفاعة الانضمام إلى آخر مناصرًا له وسائلا عنه؛ وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى.[١]

وقد تحدث العلماء في أنواع الشفاعة، فمنها: شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم الكبرى، العامّة في الخلائق، الخاصّة به حين يرغب الخلق إليه، فيشفع في أهل الموقف ليُقضى بينهم، وذلك هو المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، ففي ذلك الموقف الرهيب حين يشتد الزحام ويعظم الكرب، يذهب أهل المحشر إلى الأنبياء عليهم السلام، فيعتذرون؛ لجلالة المقام، ثم يذهبون إلى محمد صلى الله عليه وسلم فيقول: أنا لها، أنا لها، ثم يأتي فيخرُّ ساجدًا بين يدي الله تعالى ويحمده ويثني عليه ويدعوه، حتى يقال له: "ارفع رأسك، وسل تُعط، واشفع تُشفع."[٢]

(١)- يراجع: المفردات في غريب القرآن ١/ ٥٤٤، والصحاح للجوهري مادة شفع ٣/ ١٢٣٨، والمحكم والمحيط الأعظم لابن سيده مادة شفع ١/ ٣٧٨، ط : دار الكتب العلمية - ٢٠٠٠م، وإثبات الشفاعة للحافظ الذهبي١/ ٨، ط: أضواء السلف-الرياض.

(٢)- رواه الإمام البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه ، كتاب التفسير، باب: وعلم آدم الأسماء كلها، حديث رقم ٤٢٠٦ .

ومنها: شفاعته صلى الله عليه وسلم في إدخال قوم الجنة بغير حساب؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: "فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك مَنْ لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة."(١)

ومنها: شفاعته صلى الله عليه وسلم في دخول سائر أهل الجنة الجنة؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: "أنا أول شفيع في الجنة."(٢)

ومنها: شفاعته صلى الله عليه وسلم في رفع درجات أقوام وزيادة نعيمهم؛ كدعائه صلى الله عليه وسلم لأبي سلمة(٣) لما قُبض فقال: "اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين."(٤)

ومنها: شفاعته صلى الله عليه وسلم في بعض أهل النار؛ حتى يخفف من عذابه؛ كما ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر عمّه أبا طالب، فقال: "لعله تنفعه شفاعتي، فيُجعل في ضحضاحٍ من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه."(٥)

ومن أنواع الشفاعة: نوع يشترك فيه مع النبي صلى الله عليه وسلم غيره من الأنبياء والملائكة والصالحين؛ وهو شفاعته صلى الله عليه وسلم فيمن استحق دخول النار من عصاة المسلمين ألا يدخلها، وفيمن دخلها أن يخرج منها؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: "فيحدُّ لي حدًّا، فأخرجهم

---

(١)- رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ذرية من حملنا مع نوح، رقم ٤٤٣٥ .

(٢)- رواه الإمام مسلم بسنده عن أنس رضي الله عنه في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث رقم رقم ٥٠٦ .

(٣)- هو عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله المخزومي، أخو النبي صلى الله عليه وسلم من الرضاعة، وابن عمته برّة بنت عبد المطلب، وزوج أم سلمة رضي الله عنها، هاجر الهجرتين، ومات بالمدينة بعد أن رجعوا من أحد؛ يراجع: الإصابة ٤/ ١٥٢ وما بعدها، والطبقات الكبرى ٨/ ٨٧ وما بعدها، وصفة الصفوة ١/ ٤٤١ .

(٤)- رواه الإمام مسلم بسنده عن أم سلمة رضي الله عنها، كتاب الجنائز، باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حُضر، رقم ٢١٦٩.

(٥)- رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، كتاب فضائل الصحابة، باب في قصة أبي طالب، رقم ٣٦٧٢.

من النار، وأدخلهم الجنـة"[١]، وجاء في الصحيح أن المؤمنين يقولون مستشفعين للعصاة: "ربنا كانوا يصلون معنا، ويحجون معنا، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم."[٢]_[٣]

وأهل السنة يؤمنون بـــهذه الشفاعات جميعًا؛ لثبوت أدلتها، كقوله سبحانه وتعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ سـورة المائدة الآية رقم ١١٨؛ ووجه الاستدلال أن هذه الشفاعة من عيسى عليه السلام إما أن يقال: إنها كانت في حق الكفار، أو في حق المسلم المطيع، أو في حق المسلم صاحب الـ صغيرة، أو المسلم صاحب الكبيرة بعد التوبة، أو المسلم صاحب الكبيرة قبل التوبة، والقسم الأول باطل؛ لأن قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ لا يليق بالكـــفار؛ والقسم الثاني والثالث والرابع باطل؛ لأن المسلم المطيع والمسلم صاحب الصغيرة والمسلم صاحب الكبيرة بعد التوبة لا يجوز تعذيبهم عقلاً عند المعتزلة كما سيظهر؛ وإذا كان كذلك لم يكن قوله: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ ﴾ لائقًا بهم؛ وإذا بطل ذلك لم يبق إلا أن يقال: إن هذه الشفاعة إنما وردت في حق المسلم صاحب الكبيرة قبل التوبة؛ وإذا صح القول بهذه الشفاعة في حق عيسى عليه السلام، صح القول بها في حق محمد صلى الله عليه وسلم، ضرورة أنه لا قائل بالفرق.

ومن الأدلة قوله عليه الصلاة والســلام: "شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي"[٤]، وقوله صلى الله عليه وسلـــم: "لكل نبي دعوة مستجابة؛ فتعجَّل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة

---

(١)- رواه الإمام البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم ٦١٩٧.

(٢)- رواه الإمام مسلم بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: وجوه يومئذ ناضرة، رقم ٤٧٢.

(٣)- يراجع: شرح الإمام النووي على صحيح الإمام مسلم ٣/ ٣٥ وما بعدها، وفتح الباري١١/ ٤٢٨ - ٤٢٩.

(٤)- رواه الإمام الترمذي بسنده عن أنس رضي الله عنه في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في الشفاعة، حديث رقم ٢٤٣٥، وقال: حسن صحيح.

لأمتي يوم القيامة؛ فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا"(١)، والاستدلال به أن الحديث صريح في أن شفاعته صلى الله عليه وسلم تنال كل من مات من أمته لا يشرك بالله شيئًا؛ وصاحب الكبيرة كذلك؛ فوجب أن تناله الشفاعة.

وكل واحد من هذه الأخبار وإن كان مرويًّا بالآحاد؛ إلا أنها كثيرة جدًّا، وبينها قدر مشترك واحد؛ وهو خروج أهل العقاب من النار بسبب الشفاعة؛ فيصير هذا المعنى مرويًّا على سبيل التواتر؛ فيكون حجة.(٢)

ومن الأدلة العقلية التي استدل بها أهل السنة على ما يرونه في أمر الشفاعة ما قاله الإمام الأشعري رحمه الله: "يقال للمعتزلة: الشفاعة لمن تكون؟ لمرتكبي الكبائر، أو للمؤمنين المخلصين؟ فإن قالوا: لمرتكبي الكبائر، وافقونا، وإن قالوا: للمؤمنين المبشرين بالجنة الموعودين بها، قيل لهم: فإذا كانوا بالجنة موعودين، والله لا يخلف وعده، فما معنى الشفاعة لقوم لا يجوز عندكم ألا يدخلهم الله جناته؟ فإن قالوا: يشفع النبي صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى في أن يزيدهم من فضله، لا في أن يدخلهم جناته، قيل لهم: أو ليس قد وعدهم الله ذلك فقال: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ سورة فاطر الآية رقم ٣٠، والله لا يخلف وعده، فإنما يُشفع إلى الله تعالى عندكم في ألا يخلف وعده، وهذا جهل من قولكم، وإنما الشفاعة المعقولة فيمن استحق عقابًا أن يوضع عنه عقابه، أو فيمن لم يعده شيئًا أن يتفضل به عليه، فأما إذا كان الوعد بالتفضل سابقًا، فلا وجه لهذا."(٣)

ويؤمن أهل السنة أن هناك شرطين لتحقق الشفاعة: الشرط الأول: إذن الله تعالى للشافع؛

---

(١)- رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة في كتاب الدعوات، باب لكل نبي دعوة مستجابة، حديث رقم ٥١٢.

(٢)- مفاتيح الغيب ٣/ ٦١.

(٣)- الإبانة للإمام للأشعري ١/ ٢٤١، ط: دار الأنصار- القاهرة.

قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ سورة البقرة: ٢٥٥، وإذن الله تعالى لا يكون إلا للموحد المخلص في توحيده لله تعالى؛ قال جل شأنه: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ سورة الزخرف: ٨٦؛ أي: لكن مَنْ شهد بالحق على بصيرةٍ وعلم؛ فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه تعالى له"[١]، وأما الشرط الثاني: فهو رضا المولى جل شأنه عن المشفوع فيه؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ سورة الأنبياء: ٢٨، والمرتضى عند الله تعالى هو مَنْ قال: لا إله إلا الله، وقد جاء الشرطان في قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ سورة النجم: ٢٦

وأما المعتزلةُ فقد رتبوا على قولهم بالوعد والوعيد[٢] إنكار شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحاب الكبائر إذا ماتوا دون أن يتوبوا منها؛ حيث يعني الوعد والوعيد عندهم وجوب الثواب والعقاب على الله تعالى؛ لأن وعد الله ووعيده صدق لا يمكن أن يتخلف،

---

(١)- تفسير القرآن العظيم ٧/ ٢٤٣.

(٢)- لا يكون معتزليًّا من لم يقر بالأصول الخمسة؛ وهي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والوعد عند المعتزلة: هو كل خبر يتضمن إيصال نفع إلى الغير، أو دفع ضرر عنه في المستقبل، والوعيد: هو كل خبر يتضمن إيصال ضرر إلى الغير، أو تفويت نفع عنه في المستقبل، ويرى المعتزلة أن الله تعالى وعد المطيعين بالثواب، وتوعَّد العصاة بالعقاب، وأنه يوقع ما وعد به وتوعَّد عليه لا محالة؛ إذ العدالة حسب وجهة نظر المعتزلة تقتضي ذلك؛ لأنه تعالى لا يكلِّف بالإيمان ويُقدر عليه؛ ثم لا يثيب على الإتيان به ولا يعاقب على تركه؛ وإلا كان التكليف عبثًا، والمعتزلة في قولهم بالوعيد يقسمون المعاصي إلى صغائر وكبائر؛ وقد اتفقوا على أن العبد إذا خرج من الدنيا من غير توبة عن كبيرة من الكبائر؛ فإنه يستحق العقاب؛ ويرى جمهورهم أن الكبيرة هي كل معصية جاء فيها حدٌّ أو عقوبة أو وعيد؛ نحو السرقة؛ وما عدا ذلك فهو صغير من المعاصي، ويرون أيضًا أن الكبائر تبطل الثواب على الإيمان؛ لأن الكبيرة تبلغ مبلغًا لا يكون في الطاعات ما يزيد عليه، ولا يزول عقاب الكبائر بكثرة الطاعات المفعولة؛ بل يزول بالتوبة فقط، أما الصغائر: فتسقط بالتوبة، أو بطاعات هي أعظم منها، يراجع: شرح الأصول الخمسة ص ١٣٤-١٣٥، والمختصر في أصول الدين ص ٢٦١.

والشفاعة عندهم إنما هي في رفع درجات المؤمنين في النعيم.[1]

يقول الجبائي[2]: "مالت قلوب المرجئة -يقصد أهل السنة- إلى ما هو أسهل وأطيب للنفس؛ لأن اعتقاد الوعيد يغلظ على النفس؛ لما فيه من اليأس من الرحمة مع الإصرار، وفي الإرجاء إطماع النفس مع ذلك في الغفران؛ ولذلك كثر القائلون بالإرجاء، وقلَّ المتمسكون بالوعيد، وتعلَّقوا بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ سورة النساء: ٤٨؛ والمروي عن الحسن رحمه الله أنه قال لمن سأله عن ذلك: أما عرّفك الله مشيئته يا لُكَع[3] بقوله: ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴾ سورة النساء: ٣١.[4]

ومن أدلة المعتزلة على ما ذهبوا إليه من إنكار الشفاعة قوله تعالى: ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴾ سورة غافر الآية رقم ١٨، حيث قالوا: إنه تعالى نفى أن يكون للظالمين شفيع ألبتة؛ فلو كان النبي صلى الله عليه وسلم شفيعًا للظلمة؛ لم يكن لهذا معنى.[5]

وقالوا أيضًا: صحّ من دين النبي صلى الله عليه وسلم أن الكفار يعاقَبون أبدًا، وكما ثبت خلود أهل الكفر في النار، ثبت أيضًا في قاتل النفس، والفارّ من الزحف، وآكل مال اليتيم؛ فقد قال

(١)- يراجع: شرح الأصول الخمسة ١/ ١٣٤.

(٢)- هو أبو علي محمد بن عبد الوهاب بن سلام بن خالد بن عمران ٢٣٥هـ - ٣٠٣هـ، رئيس علماء الكلام في عصره، وإليه تُنسب الجبائية، وهو من الطبقة الثامنة؛ يراجع: طبقات المعتزلة للقاضي ص ٢٨٧، ووفيات الأعيان لابن خلِّكان ٤/ ٢٦٧ وما بعدها.

(٣)- الرجل اللكع: هو اللئيم، أو ذليل النفس؛ يراجع: الصحاح مادة لكع ٣/ ١٢٨٠.

(٤)- يراجع : فضل الاعتزال ١/ ١٥٣-١٥٤.

(٥)- شرح الأصول الخمسة ١/ ٦٨٩.

صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الجنة عاقٌّ، ولا منّان، ولا مدمن خمر"[(١)]؛ قالوا: فأي تشنيعٍ علينا إذا اتبعنا الكتاب والسنة؟!![(٢)]

وقال القاضي عبد الجبار رحمه الله: "أليس الأمة قد اتفقت على قولهم: اللهم اجعلنا من أهل الشفاعة؟ فلو كان الأمر على ما ذكرتموه لكان يجب أن يكون هذا الدعاء دعاء لأن يجعلهم الله تعالى من الفساق."[(٣)]

ومن هنا وقف المعتزلة من نصوص الشفاعة موقف المنتقي لما يدعم مذهبه، وأولوا الآيات التي تعارض قولهم فيها تأويلات بعيدة!!!

فالإمام الزمخشري رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ سورة البقرة الآية رقم ٤٨، يقول: "إن قلت: هل فيه دليل على أنّ الشفاعة لا تُقبل للعصاة؟ قلت: نعم؛ لأنه نفى أن تقضي نفسٌ عن نفس حقًّا أخلّت به من فعل أو ترك، ثم نفى أن يُقبل منها شفاعة شفيع؛ فعُلم أنها لا تُقبل للعصاة."[(٤)]

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ سورة النساء الآية رقم ٩٣، يقول: "والعجب من قوم يقرءون هذه الآية ويرون ما فيها ويسمعون هذه الأحاديث العظيمة، ثم لا

---

(١)- رواه ابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، باب ذكر الإخبار عن نفي دخول الجنة عن المنان، حديث برقم ٣٣٨٣، ط: مؤسسة الرسالة، ورواه ابن حجر الهيثمي، وقال: فيه عباد بن كثير، وهو متروك؛ مجمع الزوائد ٥/ ١١٨.

(٢)- يراجع : فضل الاعتزال ١/ ١٥٣ وما بعدها .

(٣)- شرح الأصول الخمسة ١/ ٦٩٢.

(٤)- الكشاف١/ ١٦٥.

تدعهم طماعيتهم الفارغة واتباعهم هواهم وما يخيل إليهم مناهم، أن يطمعوا في العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة.

فإن قلت: هل فيها دليل على خلود من لم يتب من أهل الكبائر؟ قلت: ما أبين الدليل؛ وهو تناول قوله: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ ﴾ أيَّ قاتل كان، من مسلم أو كافر، تائب أو غير تائب، إلا أن التائب أخرجه الدليل؛ فمن ادعى إخراج المسلم غير التائب فليأت بدليل مثله."(١)

ردود أهل السنة على المعتزلة:

أجاب أهل السنة على الآيات التي استدل بها المعتزلة على أن تأثير الشفاعة لا يكون في إسقاط العقوبة عن المستحقين لها جوابًا عامًّا فقالوا: وردت نصوص توهّم منها المعتزلة إنكار الشفاعة لأهل الكبائر؛ كقوله تعالى: ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ سورة آل عمران الآية رقم ١٩٢، وكقوله تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ سورة المدثر الآية رقم ٤٨، وهذه الآيات ليست عامة في كل ظالم، وإنما المراد بها الكاملون في الظلم، وهم الكفار والمشركون، جمعًا بين الأدلة، وإلا لكان الإسلام مع ارتكاب بعض المعاصي مساويًا للكفر!!(٢)

وأما الأحاديث التي ذكرها المعتزلة؛ فتُحمل على مَن فعل ذلك مستحلاً لفعله.(٣)

وأمّا ما ذكره القاضي عبد الجبار فهو قول باطل؛ إذ الشفاعة قد تكون لتخفيف الحساب وزيادة الدرجات أيضًا، ثم إنه يلزم على قوله ألا يدعو أحد بالمغفرة والرحمة؛ لأنهما لأصحاب الذنوب؛ وهذا كله خلاف ما عُرف من دعاء السلف والخلف.(٤)

يقول الإمام القرطبي رحمه الله: "إنما يطلب كل مسلم شفاعة الرسول صلى الله عليه

---

(١)- الكشاف ١/ ٥٨٤.

(٢)- يراجع: مفاتيح الغيب ٦/ ١٧٦.

(٣)- يراجع: المصدر السابق ٣/ ٦١.

(٤)- شرح النووي على صحيح مسلم ٣/ ٣٦.

وسلم، ويرغب إلى الله تعالى في أن تناله؛ لاعتقاده أنه غير سالم من الذنوب، ولا قائم لله تعالى بكل ما افترض عليه؛ بل كل واحد معترف على نفسه بالنقص؛ فهو لذلك يخاف العقاب ويرجو النجاة؛ قال صلى الله عليه وسلم: "لن يُنجي أحدًا منكم عمله؛ فقيل: ولا أنت يا رسول الله؟! فقال: ولا أنا؛ إلا أن يتغمدني الله برحمة." (١)_(٢)

وأما استدلال الزمخشري بقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ سورة البقرة الآية رقم ٤٨؛ فقد فسّره أهل السنة موضحين الصواب؛ فيقول الإمام الطبري رحمه الله: "خاطب الله تعالى أهل هذه الآية بما خاطبهم به فيها؛ لأنهم كانوا من يهود بني إسرائيل، وكانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه وأولاد أنبيائه، وسيشفع لنا عنده آباؤنا؛ فأخبرهم الله عزّ وجلّ أن نفسًا لا تجزي عن نفس شيئا في القيامة، ولا يُقبل منها شفاعة أحد فيها؛ فالآية هنا وإن كان مخرجها عامًا في التلاوة، فإن المراد بها خاص في التأويل."(٣)

وأما قول الزمخشري عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا ﴾ سورة النساء الآية رقم ٩٣، فيجاب عنه بأن التائب أخرجه الدليل، وهو أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيحة الصريحة في الشفاعة في رفع العقوبة عن المستحقين لها، فمن ادَّعى إخراج المسلم غير التائب، فليأت بدليلٍ مثله.

(١)- رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، رقم ٦٠٩٨.

(٢)- الجامع لأحكام القرآن ١/ ٣٨٠.

(٣)- جامع البيان ١/ ٣٢-٣٣ بتصرف.

الفصل الرابع

قوله تعالى : (إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ)

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: في مسائل الآية.

المبحث الثاني: ارتباط (من ذا الذي) بمقامي النصر والتوكل.

المبحث الأول: في مسائل الآية الكريمة

قال تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ سورة آل عمران: ٦٠

(المسألة الأولى): المقصود من هذه الآية الكريمة وهذا الخبر العظيم إطلاق الأفكار من عِقَالِهَا، وَالزَجُّ بها في مسارح الْعِبَرِ، ومراكض العظات، والترغيب في الطاعة، والتحذير من المعصية، وذلك لأن الخطاب فيما تَقَدَّمَ كان بفنون الملام والمعذرة والتسلية، ثم جَمَعَ لهم كل ذلك في كلام نافع في تَلَقِّي الماضي، وصالح للعمل به في المستقبل، حيث تبين الآية الكريمة أن من اتقى الله فقد فاز بسعادة لا شقاوة معها، وَبِعِزٍّ لَا ذُلَّ معه، وأما من أتى بالمعصية فإن الله يخذله، ومن خذله الله تعالى فقد وقع في شقاوة لا سعادة معها، وَذُلٍّ لَا عِزَّ معه!!![(١)]

(المسألة الثانية): في الآية الكريمة الْتِفَاتٌ؛ إذ هي خُرُوجٌ مِنْ غَيْبَةٍ إلى الخطاب؛ فإن الله تعالى لَمَّا أَمَرَ رسوله صلى الله عليه وسلم بالعفو عنهم ومشاورتهم والتوكل عليه جل شأنه في قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ سورة آل عمران: ١٥٩، أَوْضَحَ أن ما صدر من النصر أو الخذلان إنما هو راجع لمشيئته، وأنه متى نصركم لا يمكن أن يغلبكم أحد، ومتى خذلكم فلا ناصر لكم من دونه.[(٢)]

---

(١)- يراجع: مفاتيح الغيب ٩/ ٤١١، والبحر المحيط ٣/ ٤١٠، ونظم الدرر ٥/ ١٠٩، والتحرير والتنوير ٤/ ١٥٣.

(٢)- يراجع: البحر المحيط ٣/ ٤١٠.

(المسألة الثالثة): أهل السنة قد استدلوا بهذه الآية على أن الإيمان لا يحصل إلا بإعانة الله تعالى، والكفر لا يحصل إلا بخذلانه، والوجه فيه ظاهر؛ لأنها دالّة على أن الأمر كله لله.(١)

(المسألة الرابعة): أكثر المفسرين جعلوا النُّصْرَةَ بالحجة القاهرة، وبالعاقبة في الآخرة، فقالوا: المعنى: إنْ حَصَلَتْ لكم النُّصْرَةُ فلا تَعُدُّوا ما يَعْرِضُ من العوارض الدنيوية في بعض الأحوال غَلَبَةً، وإنْ خَذَلَكُمْ في ذلك فلا تَعُدُّوه من الخذلان، إذ النُّصْرَةُ والخذلان معتبران بالمآل.(٢)

(المسألة الخامسة): الخَذْل: هو الترك في مواطن الاحتياج إلى التارك، وأصله مِنْ خذل الظباء، وبهذا قيل لها: خاذل، إذ تركتها أمها، وهذا على النسب، أي ذات خذل؛ لأن المتروكة هي الخاذل بمعنى مخذولة.(٣)

فالله تعالى يحرم من معونته وتأييده مَن يُخلّ بما افترضه عليه –كما جرى يوم أُحُد– أو يُخلّ بالتوكل ويُعجَب بكثرته– كما جرى يوم حُنَين–

(المسألة السادسة): قوله تعالى: ﴿ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ مفيدٌ لانتفاء الناصرِ ذاتًا وصفةً بطريق المبالغة؛ ليوجه أنظار المخاطبين إلى البحث عن قوى تكون قدرتها كافية للوقوف أمام إرادة الله تعالى الخذلان، ولن يجدوه، فعندئذ يحكمون بأن الله وحده الكبير المتعال، ولا ناصر سواه.

والسر في إتيان جواب: ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ بصريح النفي العام، وجواب ﴿ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ﴾ على هذا الوجه: تنويع الكلام، والتلطُّف بالمؤمنين؛ حتى لا يصرِّح لهم بأنه لا ناصر لهم، بل أبرز

(١)- يراجع: مفاتيح الغيب ٩/ ٤١١ .

(٢)- يراجع: البحر المحيط ٣/ ٤١٠ .

(٣)- يراجع: المفردات في غريب القرآن ١/ ٢٧٧.

ذلك في صورة الاستفهام الذي يقتضي السؤال عن الناصر، وَإِنْ كان المعنى على نَفْيِ الناصر، لكن فَرّقَ بين الصريح وَالْمُتَضَمِّنِ، فَلَمْ يُجْرِ المؤمنين في ذلك مجرى الكفار الذي نصَّ عليه بالصريح أنه لا ناصر لهم، كقوله تعالى: ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ سورة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: ١٣

والضمير في ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ عائد إلى الله تعالى، إمَّا على حذف مضاف، أي من بعد خِذلانه، أو لا يُحتاج إلى تقدير هذا المحذوف؛ أي من بعدِ الله تعالى، على معنى إذا جاوزتموه، ومِثْلِ هذا شائع في القرآن، قال تعالى: ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ سورة الجاثية: ٢٣. (١)

(المسألة السابعة): لَمَّا ثبت أَنَّ الأمر كله بيد الله، وأنه لا رَادَّ لقضائه ولا معقِّب لحكمه، وَجَبَ أنْ لا يتوكل المؤمن إلا عليه، ولذا خُتمت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾؛ أي عليه وحده لا على شيء سواه، وأفاد ذلك تقديم﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾، أي أن المؤمنين لا يتوكلون إلا على الله سبحانه وتعالى، فغير المؤمن يعتمد على الأشخاص الفانين، أما المؤمن فلا يعتمد على أحد سوى الله تعالى.

والمرادُ بالمؤمنين: إما الجنسُ، والمخاطبون داخلون فيه دخولا أوليًّا، وإمَّا هم خاصةً بطريق الالتفات، وأيًّا ما كان ففيه تشريفٌ لهم بعنوان الإيمانِ اشتراكًا أو استقلالاً، وتعليلٌ لتحتم التوكلِ عليه تعالى؛ فإن وصفَ الإيمانِ مما يوجبه قطعًا. (٢)

(١)- يراجع: مفاتيح الغيب ٩/ ٤١١، والبحر المحيط ٣/ ٤١٠، وإرشاد العقل السليم ٢/ ١٠٥، والتحرير والتنوير ٤/ ١٥٣.

(٢)- يراجع: مفاتيح الغيب ٩/ ٤١١، وإرشاد العقل السليم ٢/ ١٠٥.

المبحث الثاني

ارتباط (من ذا الذي) بمقامي النصر والتوكل

قد تبين مما سبق ارتباط الاستفهام بقوله: (من ذا الذي) هنا بمقامي النصر والتوكل؛ ليوجه أنظار المخاطبين إلى البحث عن قوى تكون قدرتها كافية للوقوف أمام إرادة الله تعالى الخذلان، ولن يجدوه، فعندئذ يحكمون بأن الله وحده الكبير المتعال، ولا ناصر سواه؛ فلا يتوكلون إلا عليه سبحانه وتعالى، لا على الأشخاص الفانين، وذلك أن الاستفهام هنا إنكاريٌّ مفيدٌ لانتفاء الناصرِ ذاتًا وصفةً بطريق المبالغة!!!

أولاً: مقام النصر:

حقيقة النصر: المعونة بطريق التولي والمحبة، وهذا قد خص الله تعالى به المؤمنين لا غير.[١]

ومن أسمائه الحسنى عزَّ وجلَّ: الناصر، والنصير، قال الله تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾ سورة آل عمران: ١٥٠، وقال الله تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ سورة الحج: ٧٨، وقال الله تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ﴾ سورة الفرقان: ٣١.

فالله تبارك وتعالى ينصر أولياءه بأن يهديهم سبله، وأن يجعل لهم طريقًا من قلوبهم إليه، حتى تصير عين قلوبهم كأنه يرونه من غير كيفية، وهو قول جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث سأله عن الإحسان، فقال: (أن تعبد الله كأنك تراه)[٢]، وهكذا وعد في كتابه، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ سورة العنكبوت: ٦٩، فإذا هداهم طريقه، لم يبق على قلوبهم حجاب؛ لأنه فتح طريق قلوبهم إليه، فحينئذ يمكنهم السكون إليه، وتطمئن قلوبهم، وتثق بوعده، وتأتمنه على نفوسهم، فهذه نصرة الرب عز وجل.

---

(١)- يراجع: المفردات في غريب القرآن ١/ ٨٠٨.

(٢)- رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب اليمان، باب سؤال جبريل عليه السلام النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، رقم ٥٠.

والله تعالى أيضًا ينصر رسله وأتباعهم على أعدائهم، ويثبت أقدامهم ولو اجتمع عليهم أهل الأرض جميعًا، ويلقي الرعب في قلوب أعدائهم، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴾ سورة غافر: ٥١

بل إن الله تعالى قد أوجب على نفسه –تفضُّلاً وكرمًا– نصر المؤمنين على أعدائهم، كما قال سبحانه: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ سورة الروم: ٤٧

فعلى المؤمن أن يستنصر بالله، ويتوكل عليه، ويتوجه بقلبه إليه، فهو نعم المولى ونعم النصير، قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ سورة البقرة: ١٠٧

فإذا قال أهل الباطل للمؤمن: (مَجْنُونٌ)، فإن قلبه يمتلىء ثقة بـ ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴾ سورة القمر: ١٠

وإذا قال أهل الباطل للمؤمن: ﴿ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴾ سورة طه: ٧١، امتلأ القلب بـ ﴿ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴾ سورة طه: ٧٢

وإذا قيل للمؤمن: ﴿ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴾ سورة الشعراء: ٦١، امتلأ قلبه بـ ﴿ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ سورة الشعراء: ٦٢

وعلى المؤمن أن ينصر ربه بعبادته، ورعاية عهوده، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ سورة الحج: ٤٠–٤١، وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ سورة محمد صلى الله عليه وسلم: ٧

فإن قيل: فإذا كان الأمر كذلك، فلم ينتصر الباطلُ على الحق؟!

فيقال: إن الباطل قد يُسلَّط على الحق المشوب بشيء أحيانًا، على الحق الذي توجد فيه بعض الثغرات؛ في حقيقة الإيمان به، أو في مدى العمل به، وذلك لتـ صفيته، ولاستخراج عبودية أهله لربهم في السراء والضراء والعافية والبلاء.

وقد وقع هذا بالفعل في غزوة أُحد، حتى قال المسلمون: أنى هذا؟ قال تعالى: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ سورة آل عمران: ١٦٥- ١٦٦

وقد يبطئ النصر لأن الباطل لم ينكشف للناس تمامًا، ولم يقتنعوا بعدُ بفساده، فيشاء الله أن يبقى حتى ينكشف للناس، ثم يذهب غير مأسوف عليه، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ سورة آل عمران: ١٧٩

وقد يتأخر النصر؛ لأن البيئة لا تصلح بعدُ لاستقبال الحق والخير والعدل، فلو انتصر أهل الحق لوجدوا معارضة لا يستقر لهم معها قرار، فيظل الوضع قائمًا حتى تتهيأ النفوس لاستقبال الحق واستبقائه، قال تعالى: ﴿ لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾سورة الأنفال: ٤٢

ولو نُـ صر أهل الحق دائمًا لبطروا ولَدَخلَ في الدين مَن لا يقـ صده لذاته، ولو غُلبوا دائمًا ليئسوا ولم يدخل في دين الله أحدٌ، وهذا كقوله تعالى: ﴿ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ سورة آل عمران: ١٤٠ - ١٤٢

وأيضًا فإن الله تعالى يملي للباطل، فإذا أخذه لم يفلته، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ سورة آل عمران: ١٧٨

وقد يتأخر النصر؛ لتتضاعف الآلام والتضحيات، فيكون وقعه في نفوس المنتصرين أشد،

وفرحهم به أكثر.

فانتصار الباطل في معركة لا يعني غلبته، وانهزام أهل الحق في معركة لا يعني أن الله تاركه، إنْ هي إلا معارك تختلف في نتائجها، ثم تنتهي إلى الوعد الذي وعده اللهُ رسلَه.(١)

ثانيًا: مقام التوكل:

التوكل على الله تعالى من فروض الإيمان، ومحله القلب، قال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ سورة آل عمران: ١٢٢، وقال الله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ سورة المائدة: ٢٣، وقال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ سورة الفرقان: ٥٨، وقال تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ سورة النمل: ٧٩، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ سورة الملك: ٢٩

والتوكل هو صفة أنبياء الله تعالى وأوليائه؛ كما قال تعالى عن رسله عليهم السلام: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ سورة إبراهيم: ١٢، وقال تعالى عن أصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ سورة آل عمران: ١٧٣، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ سورة الأنفال: ٢

ماهية التوكل:

التوكل مشتق من الوكالة، يقال: وكَّل أمره إلى فلان: أي فوضه إليه واعتمد عليه فيه، ويسمى الموكول إليه وكيلاً، ويسمى المفوِّض إليه متكلاً عليه ومتوكلاً عليه، فالتوكل عبارة عن اعتماد

---

(١)- يراجع: أدب النفس لأبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر الحكيم الترمذي ت٣٢٠هـ ١/ ١٠٤، ط: الدار المصرية اللبنانية- مصر، ط١: ١٤١٣هـ، ت: د/ أحمد عبد الرحيم السَّايح، وتفسير المنار ٣/ ١٩٤- ٤/ ٧٨ وما بعدها- ١٠/ ١٠٧ وما بعدها، وزهرة التفاسير ٢/ ٩٠١ وما بعدها- ٣/ ١٣٩٢ وما بعدها – ٣/ ١٤٢١ وما بعدها- ٦/ ٣٠٨٣ وما بعدها.

القلب على الوكيل وحده.[١]

ومن الناس مَن يجعله من باب المعارف والعلوم، فيقول: التوكل هو علم القلب بكفاية الرب.

وقال سَهْلٌ[٢]: هو الاسترسال مع ما يريده الله تعالى، ففسره بالرضا كما ترى!!!

وسُئل عن التوكل، فقال: قلب عاش مع الله بلا عَلَاقَةٍ.

ومنهم من فسره بالثقة بالله، والسكون إليه.

وقال ذو النون[٣]: هو ترك تدبير النفس، والانخلاع من الحول والقوة.

وقيل: التوكل أَنْ تَرِدَ عليك مَوَارِدُ الفاقات، فَلَا تَسْمُو إلا إلى مَنْ إليه الكفايات.

وقيل: هو نَفْيُ الشكوك، والتفويض إلى مالك الملوك.

وقال أبو تراب النخشبي[٤]: هو طَرْحُ البدن في العبودية، وَتَعَلُّقُ القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية، فَإِنْ أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِنْ مُنِعَ صَبَرَ.[٥]

---

(١)- يراجع: المفردات في غريب القرآن ١/ ٨٨٢.

(٢)- هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس التستري -نسبة إلى تُسْتُر- أحد الأئمة الكبار، تُوفي سنة٢٨٣ه، يراجع: طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ١/ ١٦٦، ط: دار الكتب العلمية، ت: مصطفى عبد القادر عطا.

(٣)- هو أبو الفيض -ويقال: الفيض، ويقال: ثوبان- بن إبراهيم المصري، وذو النون لقبه، كان أبوه نوبيًّا، تُوفي سنة٢٤٥ه، يراجع: طبقات الصوفية للسلمي ١/ ٢٧.

(٤)- هو عسكر بن حُصين، من أجلِّ مشايخ خراسان، والمذكورين بالعلم والفتوّة والتوكل والورع، صحب حاتمًا الأصم، وتُوفي سنة ٢٤٥ه، يراجع: طبقات الصوفية للسلمي ١/ ١٢٤.

(٥)- يراجع: إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ٤/ ٢٥٩، ط: دار المعرفة- بيروت، ومدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم ٢/ ١١٤ وما بعدها، ط: دار الكتاب العربي، ط٣: ١٤١٦ه، ت: محمد المعتصم بالله البغدادي.

التوكل والأخذ بالأسباب:

وهو إنما يكون مع الأخذ بالأسباب، والعمل بالأسباب محله الأعضاء والجوارح، وترك الأسباب بدعوى التوكل لا يكون إلا عن جهل بالشرع أو فساد في العقل، قال تعالى:﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ سورة الملك:١٥، وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ﴾ سورة النساء: ٧١، وقال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ سورة الأنفال: ٦٠، وقال تعالى للوط عليه السلام: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ سورة الحجر:٦٥، وقال تعالى في الحكاية عن نبيه يوسف عليه السلام:﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ سورة يوسف:٤٢، وقال تعالى في الحكاية عن نبيه يعقوب عليه السلام:﴿ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ سورة يوسف:٦٧، فأمرهم بالحذر مع التنبيه على أنه متوكل على الله تعالى، والتذكير بوجوب التوكل عليه، فجمع بين الواجبين، وبيّن أنه لا تنافي بينهما، ولا غَنَاءَ للمؤمن عنهما.

وقال صلى الله عليه وسلم: "لَوْ أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا"(١)، فذكر أن الطير تذهب صباحًا في طلب الرزق وهي خِمَاصٌ –لِفَرَاغِهَا– وترجع ممتلئة البطون، ولم يقل إنها تمكث في أعشاشها فيهبط عليها الرزق من غير أن تسعى إليه.

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن ناقته، أَأَعْقِلُهَا وأتوكل، أَمْ أُطْلِقُهَا

---

(١)- رواه الإمام الترمذي بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كتاب أبواب الزهد، باب في التوكل على الله، رقم ٢٣٤٤، وقال حسن صحيح.

وأتوكل؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "بل اعْقِلْهَا وتوكل"(١)

ففي ذلك كله كما ترى أَخْذٌ بالأسباب وإن كان اليقين حاصلاً؛ لأن الأمور بيد مسببها، ولكنه جعلها سلسلة، وركب بعضها على بعض، فتحريكها سنة، والتعويل على القدر يقين.

والإنسان إذا توكل ولم يستعد للأمر ويأخذ له أُهْبَتَهُ بحسب سنة الله تعالى في الأسباب وَالْمُسَبَّبَاتِ يقع في الحسرة والندم عندما يخيب ويفوته غرضه، فيكون ملومًا شَرْعًا وَعَقْلًا، وإذا هو استعدَّ وأخذ بالأسباب واعتمد عليها غافلاً قلبه عن الله تعالى فإنه يكون عُرْضَةً للجزع والهلع إذا خاب سَعْيُهُ ولم يَنَلْ مراده، فيفوته الصبر والثبات اللذان يُهَوِّنَانِ عليه الأمر، وربما وقع في اليأس الذي لا مطمع معه في فلاح ولا نجاح.

والحاصل أن تعاطي العبد للأسباب النافعة داخل في الإيمان بالقدر، ولا ينافيه، وإنما هو مقتضى من مقتضياته، وبغير هذا الفهم للقدر تبطل الحكمة، وتتعطل السنن، وتفسد مصالح الناس.

وكلام السلف في ذلك كثير مستفيض، قال سهل: التوكل حال النبي صلى الله عليه وسلم والكسب سنته، فمن بقي على حاله فلا يتركنَّ سنَّته، وقال: مَنْ طَعَنَ في الحركة فقد طعن في السُّنَّةِ.(٢)

علامة التوكل:

١ - حُسْنُ الظَّن بالله تعالى، فَعَلَى قَدْرِ حُسْنِ ظنك بربك يكون تَوَكُّلُكَ عليه، ولا يُتَصَوَّرُ التوكل

---

(١)- رواه الإمام الترمذي بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه، كتاب أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، رقم ٢٥١٧، وقال: حديث غريب من حديث أنس لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٢)- يراجع: الرسالة القشيرية للإمام القشيري ١/ ٣٠١، ط: دار المعارف- القاهرة، ت: الإمام عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ٥٥، ط: دار الكتب العلمية، ط٣، ت: محمد عبد القادر عطا، وتفسير المنار ٤/ ١٧٠.

على مَنْ ساء ظنك به.

٢- استسلام القلب لله تعالى، وانجذاب دواعيه كلها إليه، وقطْع منازعاته.

٣- عدم المبالاة بإقبال الأسباب وإِدْبَارِهَا، بل يكون حاله كحال مَنْ خرج عليه عَدُوٌّ عظيم لا طاقة له به، فرأى حصنًا مفتوحًا، فأدخله ربه إليه، وأغلق عليه باب الحصن، فهو يشاهد عدوه خارج الحصن، فاضطراب قلبه وخوفه من عدوه في هذه الحال لا معنى له.

٤- إلقاء الأمور كلها لله وإنزالها به، كإلقاء الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره كلَّ أموره إلى أبيه، العالم بشفقته عليه، وتمام كفايته، وحسن ولايته وتدبيره له.(١)

جزاء التوكل:

من سكن قلبه إلى أن فِي الله تعالى خَلَفًا عن جميع الخلق، وليس في أحد من الخلق خلف من الله تعالى، وأنه ليس نعمة في السماء والأرض إلا وهي لله، استراح قلبه من عذاب الْحِرْص.

والمتوكل على الله يعلم ذلك فيستغني بالمعطي الْمَانِع عَمَّن لَيْسَ بمانع وَلَا معط، فَهُوَ غَنِي بِالله عَمَّن سواهُ، قد سكن قلبه عن الاضطراب، فليس لمخلوق فِي قلبه خطر.

ولقد جعل الله تعالى لكل عمل جزاءً من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ سورة الطلاق:٣، ولم يقل: نؤته كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله تعالى حق توكله وكادته السماوات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجا من ذلك وكفاه ونصره!!!(٢)

---

(١)- يراجع: الرسالة القشيرية ١/ ٣٠١، ومدارج السالكين ٢/ ١٢١.

(٢)- يراجع: آداب النفوس لأبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي ١/ ١٩٢، ط: دار الجيل- بيروت، ت: عبد القادر أحمد عطا، وبدائع الفوائد لابن القيم ٢/ ٢٤٠، ط: دار الكتاب العربي.

الفصل الخامس

قوله تعالى: (مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: في مسائل الآية الكريمة

المبحث الثاني: ارتباط (من ذا الذي) بمقام الإنفاق في سبيل الله تعالى

المبحث الأول: في مسائل الآية

قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٌ كَرِيمٌ﴾ سورة الحديد: ١١

(المسألة الأولى): هذه الآية الكريمة ترتبط بمقام الإنفاق في سبيل الله تعالى، قال الحسن رضي الله عنه: "نزلت هذه الآية في التطوع في جميع أمر الدين."(١)

وقال ابن كثير رحمه الله: "كل من أنفق في سبيل الله بنيّة خالصة، وعزيمة صادقة، دخل في عموم هذه الآية."(٢)

وقال أبو السعود رحمه الله: "الآية ندبٌ بليغٌ من الله تعالى إلى الإنفاق في سبيلِه بعد الأمرِ به، والتوبيخِ على تركِه، وبيانِ درجاتِ المنفقينَ."(٣)

فالآية الكريمة واقعة موقع التعليل والبيان لما قبلها.

(المسألة الثانية): صدّر الله سبحانه الآية بألطف أنواع الخطاب، وهو الاستفهام المتضمّن معنى الطّلب، وهو أبلغ في الطّلب من صيغة الأمر، والمعنى: هل أحد يبذل هذا القرض الحسن، فيُجازَى عليه أضعافًا مُضاعَفة؟

و(مَنْ) ابتداء، و (ذَا) خبر، و(الَّذِي) صفة.

---

(١)- المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٠، ويراجع: تفسير القرآن العظيم ٨/ ١٤ .

(٢)- تفسير القرآن العظيم ٨/ ١٤ .

(٣)- إرشاد العقل السليم ٨/ ٢٠٧ .

وقيل: (ذا) مُعْتَرِضَةٌ لاستحضار حال المقترض بمنزلة الشخص الحاضر القريب، و (الَّذِي يُقْرِضُ) هو الخبر.

وقيل: (ذا) زائدة لمجرد التأكيد.[1]

(المسألة الثالثة): القرض: ضربٌ من القطع، وسُمِّي قَطْع المكان وتجاوزه قرضًا، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ سورة الكهف:١٧، أي: تجاوزهم، وسمي أيضًا ما يُدفع إلى الإنسان من المال بشرط رد بدله قرضا، كما في هذه الآية، والعرب أيضًا تقول لكل مَنْ فَعَلَ فِعْلًا حسنًا: قد أَقْرَضَ.[2]

وتصوُّر المؤمن أنه -وهو فقير ضئيل- يقرض الله تعالى كفيل بأن يدفعه إلى البذل دفعًا؛ والباذل -في واقعنا المعيش- متى علم أنّ عين ماله يعود إليه ولا بدّ، طوّعت له نفسه هذا البذل، وسهل عليه إخراجه، فإن علم أنّ المستقرض مليء وفيّ محسن، كان أبلغ في طيب فعله وسماحة نفسه، فإن علم أنّ المستقرض يتّجر له بما اقترضه، وينمّيه له حتّى يصير أضعاف ما بذله، كان بالقرض أسمح وأسمح، فإن علم أنّه مع ذلك كلّه يزيده من فضله وعطائه أجرًا آخر من غير جنس القرض فإنّه لا يتخلّف عن قرضه إلّا لآفة في نفسه من البخل والشُّحّ، أو عدم الثّقة بالضّمان، وذلك من ضعف إيمانه؛ ولهذا كانت الصّدقة برهانا لصاحبها.[3]

وهذه الأمور كلّها تحت هذه الألفاظ الّتي تضمّنتها الآية، فإنّه سمّاه قرضًا، وأخبر أنّه هو المقترض-لا قرض حاجة- ولكن قرض إحسان إلى المقرِض.

والسر هنا في وصف القرض بالحُسْن: أن صاحبه يخرجه من طيّب ماله، لا من رديئه

---

(١)- يراجع: التحرير والتنوير ٢٧/ ٣٧٧ .

(٢)- يراجع: العين للخليل بن أحمد ٥/ ٤٩، ط: دار الهلال، ت: د/ مهدي المخزومي-د/ إبراهيم السامرائي، والمفردات في غريب القرآن ٢/ ٢٣٥.

(٣)- يراجع: طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم ١/ ٣٦٣ .

وخبيثه، طيّبة به نفســه، ثابتة عند بذله، ابتغاء مرضــاة الله، بلا مَنٍّ ولا أذى، فهو حســنٌ من جهة المال، وحسنٌ فيما يتعلّق بالمنفق بينه وبين الله، وحسنٌ فيما يتعلّق بالمنفق بينه وبين الآخذ.[(١)]

يقول الإمام الْقُشَيْرِيُّ رحمه الله: "القرض الحسن ما يكون من وجه حلال، ثم عن طيب قلب، وصدق نية، بلا رياء يشوبه، وبلا منّ على الفقير، ولا يكدّره تطويل الوعد، ولا ينتظر عليه كثرة الأعواض.

ويقال: أن تقرضه وتقطع عن قلبك حبّ الدارين، ففي الخبر: "خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى."[(٢)]-[(٣)]

ومن القرض الحســن ألا يقـ صد إلى الرديء فَيُخْرِجُهُ؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ ســورة البقرة: ٢٦٧، بل يكون من أحبِّ أمواله؛ لقوله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ ســورة آل عمران: ٩٢، وأن يتـ صدق في حال يأمل الحياة؛ فإن النبي صـلى الله عليه وسلم سُئِلَ عن أفضل الصدقة فقال: "أَنْ تصدَّق وأنت صحيحٌ شَحِيحٌ تخشى الفقر وتأمل الغنى"[(٤)]، وأن يُخْفِيَ صَـدَقَتَهُ؛ لقوله تعالى: ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

(١)- يراجع: الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ٢٤٢، وطريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم ١/ ٣٦٣.

(٢)- رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، رقم ١٤٢٦.

(٣)- لطائف الإشارات للإمام القشيري عبد الكريم بن هوازن ٣/ ٥٣٦، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ت: إبراهيم البسيوني.

(٤)- رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الزكاة، باب فضل صدقة الشحيح الصحيح، رقم ١٤١٩.

سورة البقرة:٢٧١، وأن يحتقر كَثِيرَ مَا يُعْطِي؛ لأن الدنيا كلها قليلة.(١)

(المسألة الرابعة): التضعيف من الله تعالى يكون في الحسنات، يضاعف الله لمن يشاء.

(المسألة الخامسة): قرأ أبو عمرو ونافع وحمزة والكسائي: (فيضاعفه) بالرفع معطوفًا على (يقرض)، أو على القطع والاستئناف.

وقرأ عاصم: (فيضاعفه) بالنصب؛ لأن الفاء فاء السببية؛ إذ المضاعفة مُسَبَّبَةٌ عن القرض؛ فالفعل منصوب بإضمار (أن)، أو لأن الفاء واقعة في جواب الاستفهام.

وقرأ ابن كثير (فيضعّفُه) مشددة العين مضمومة الفاء.

وقرأ ذلك ابن عامر، إلا أنه فتح الفاء.(٢)

(المسألة السادسة): تذييل الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ معناه: أن ذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف كريم في نفسه ينبغي أن يُتوخَّى وإنْ لم يُضاعَف، فكيف وقد يُضاعَف أضعافًا!!!!(٣)

وقال بعض المفسرين: إن الأجر الكريم هنا هو الجنة.(٤)

---

(١)- يراجع: أنوار التنزيل وأسرار التأويل لناصر الدين عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي ٥/ ١٨٧، ط: دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط١٤١٨:١ه، ت: محمد المرعشلي.

(٢)- يراجع: السبعة في القراءات لأبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي ت ٣٢٤هـ ١/ ١٨٤-١٨٥، ط: دار المعارف – مصر، ط٢: ١٤٠٠ه، ت: د/ شوقي ضيف، وإعراب القرآن لأبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النَّحَّاس النحوي ت ٣٣٨هـ ٤/ ٢٣٥، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، ط١: ١٤٢١هـ، ت: عبد المنعم خليل إبراهيم.

(٣)- يراجع: أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٥/ ١٨٧.

(٤)- جامع البيان ٢٣/ ١٧٧، والجامع لأحكام القرآن ١٧/ ٢٤٢، وتفسير القرآن العظيم ٨/ ١٤.

المبحث الثاني

ارتباط (من ذا الذي) بمقام الإنفاق في سبيل الله تعالى

تبين مما سبق ارتباط الاستفهام بقوله: (من ذا الذي) في قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ بمقام الإنفاق في سبيل الله تعالى؛ لأن الاستفهام هنا يتضمّن معنى الطّلب، وهو أبلغ في الطّلب من صيغة الأمر، والمعنى: هل أحد يبذل هذا القرض الحسن، فيُجازَى عليه أضعافًا مُضاعَفة؟

والإنفاق لغة: مصدر أنفق، يقال: أنفق يُنفق إنفاقًا فهو منفِقٌ، وتدور هذه المادّة حول انقطاع الشيء وذهابه، فيقال: نفق الشيء: إذا مضى ونفد، ونفقت الدابة: إذا ماتت وفنيت، ويقال: أنفق فلان: إذا نفق ماله فافتقر، ومنه قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ﴾ سورة الإسراء: ١٠٠، والنفقة: اسم لما يُنفَق، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ ﴾ سورة البقرة:٢٧٠، والجمع: نفقات ونِفاق بالكسر.[1]

والإنفاق في الاصطلاح: هو إخراج المال الطّيّب في الطّاعات والمباحات، والنّفقة على العيال والأهل من مطعم ومشرب وكسوة ومسكن.

والإنفاق قد يكون في المال وفي غيره، وقد يكون واجبًا وتطوعًا، قال تعالى: ﴿ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ سورة البقرة: ٣، أي يزكّون، وقال تعالى: ﴿ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ سورة الطلاق: ٧، والنفقة واجبة على الأهل والعيال، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾ سورة سبأ:٣٩، إلى غير ذلك من الآيات.[2]

---

(١)- يراجع: العين للخليل ٥/ ١٧٧ وما بعدها، وتهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري ٩/ ١٥٥ وما بعدها، ط: دار إحياء التراث، ط١: ٢٠٠١م، ت: محمد عوض.

(٢)- يراجع: المفردات في غريب القرآن ٢/ ٤٤٨.

الآيات والأحاديث الواردة في الإنفاق:

يأتي الإنفاق بمعنى إخراج الزكاة الواجبة، وذلك حيث يقترن بالصلاة، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ سورة البقرة:٣، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ سورة الرعد:٢٢، ومنه قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ سورة إبراهيم عليه السلام:٣١

وسر اقترانهما أن الصلاة متضمنة للقيام بحق المعبود، والنفقة متضمنة للإحسان إلى المخلوق، فعنوان سعادة العبد طاعته وإخلاصه للخالق، وسعيه في نفع المخلوق.

ويأتى الإنفاق أيضًا بمعنى التطوع بالصدقات، ومنه قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ سورة البقرة:٢١٥، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ سورة البقرة:٢٧٢، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ سورة البقرة:٢٧٢، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ سورة آل عمران:١٣٤

وأتى الإنفاق وقُصد به الإنفاق في الجهاد كما مرّ في أول البحث، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ سورة الأنفال:٦٠، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ سورة التوبة:٩١

وأتى بمعنى دفع نفقة الأهل والعيال، قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ سورة النساء: ٣٤، وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ سورة الطلاق: ٦

ومن الأحاديث الواردة في فضل الإنفاق: قوله صلّى الله عليه وسلّم: "أفضل دينار ينفقه الرّجل دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه الرّجل على دابّته في سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله"[١]، ويفيد الحديث أن أولى الناس بالإنفاق على المرء وأحقهم بالتقديم أعظمهم حقًّا عليه، وأن درجات الإنفاق متفاوتة على حسب القرب والحاجة، وعلى حسب عظم نفعها ووقعها؛ فاليتامى الصغار الذين لا كاسب لهم مثلاً مظنة الحاجة أكثر من غيرهم، كذا نشر العلم وحفر الآبار وغرس النخيل، والسعي على الأرملة والمسكين؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: "الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليلَ الصائم النهارَ"[٢]

وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعةً يظلّهم الله تعالى في ظلّه يوم لا ظلّ إلّا ظلّه، ومنهم: رجل تصدّق بصدقة، فأخفاها حتّى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه"[٣]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا"[٤]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

(١)- رواه الإمام مسلم بسنده عن ثوبان رضي الله عنه، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال والمملوك وإثم مَن ضيعهم أو حبس نفقتهم، رقم ٩٩٤.

(٢)- رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل، رقم ٥٣٥٣

(٣)- رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين، رقم ١٤٢٣ .

(٤)- رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الزكاة، باب قوله تعالى: فأما مَن أعطى واتقى وصدَّق بالحسنى فسنيسره لليسرى، رقم ١٤٤٢.

"تصدّقوا؛ فإنه يأتي عليكم زمان يمشي الرجل بصدقته فلا يجد من يقبلها"(١)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاث أقسم عليهنّ، ما نَقَصَ مالُ عبدٍ من صدقة، ولا ظُلم عبد مظلمةً فصبر عليها إلا زاده الله عز وجل عزًّا، ولا فتح عبد باب مسألة إلّا فتح الله له باب فقر"(٢)، وقال صلى الله عليه وسلم: "الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماءُ النار"(٣)

ومن مجموع الآيات والأحاديث يتبين لك أن النفقة تزيد المال، وتضاعف الأجر، وتكفر السيئات، وتصرف غضب الله تعالى، وهي من أسباب الفلاح، ومن أسباب محبة الله تعالى للعبد، وذلك غاية الغايات.

فضيلة المال:

جعل الله تعالى المال نعمة، وزكاته تطهيرًا، فقال تعالى:﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ سورة التوبة: ١٠٣، وقال صلى الله عليه وسلم: "إن هذا المال خَضِرةٌ حُلْوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومَن أخذه بإشراف نفس لم يُبارَك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى"(٤)، والعليا: المعطية، والسفلى: هي السائلة، والأغنياء الشاكرون سبب لطاعة الفقراء الصابرين؛ لتقويتهم إياهم بالصدقة عليهم والإحسان إليهم وإعانتهم على طاعتهم، فلهم نصيب وافر من أجور الفقراء زيادة إلى نصيبهم من أجر الانفاق وطاعاتهم التي تخصهم.

---

(١)- رواه الإمام البخاري بسنده عن حارثة بن وهب رضي الله عنه، كتاب الزكاة، باب الصدقة قبل الرد، رقم ١٤١١.

(٢)- رواه الإمام الترمذي بسنده عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه، كتاب أبواب الزهد، باب ما جاء من أن مَثَلَ الدنيا مِثل أربعة نفر، رقم ٢٣٢٥، وقال: حسن صحيح.

(٣)- رواه الإمام الترمذي بسنده عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، كتاب أبواب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم ٢٦١٦، وقال: حسن صحيح.

(٤)- رواه الإمام البخاري بسنده عن حكيم بن حزام رضي الله عنه، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، رقم ١٤٧٢.

وإذا كان الله سبحانه قد غفر لمن سقى كلبًا، فكيف بمن سقى العطاش وأشبع الجياع وكسى العراة من المسلمين؟!!!

وأين يقع صبر أهل الصُّفَّة من إنفاق عثمان بن عفان رضي الله عنه تلك النفقات العظيمة!!!

وللنفس قوة بدنية عند وجود المال، وهو معدود عند الأطباء من الأدوية!!!

ولقد جعل الله سبحانه المال سببًا لحفظ البدن، وحفظه سبب لحفظ النفس التى هى محل معرفة الله والإيمان به وتصديق رسله ومحبته والإنابة إليه، فهو سبب عمارة الدنيا والآخرة، وإنما يُذَمُّ منه ما استخرج من غير وجهه، وصُرف فى غير حقه، واستعبد صاحبه، وملك قلبه، وشغله عن الله والدار الآخرة، فيذم منه ما يتوسل به صاحبه الى المقاصد الفاسدة، أو شغله عن المقاصد المحمودة.

وقد تعرض نوائب يُحتاج فيها إلى شيءٍ من المال، فلا يجد الإنسان بدًّا من الاحتيال في طلبه، فيبذل عرضه أو دينه.

يقول سعيد بن المسيب رضي الله عنه(١): لا خير فيمن لا يريد جمع المال مِن حِلّه يكفُّ به وجهه عن الناس، ويصل به رحمه، ويعطى حقه.

وإنما نبغ أقوام طلبوا طريق الراحة، فادعوا أنهم متوكلة، وقالوا: نحن لا نمسك شيئًا، ولا نتزود لسفر، ورزق الأبدان يأتي، وهذا على الضد من الشرع.(٢)

---

(١)- هو سيد التابعين، أبو محمد سعيد بن المسيّب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان يعيش من التجارة بالزيت، وكان أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب وأقضيته، حتى سمي راوية عمر رضي الله عنه، توفي بالمدينة سنة ٩٤هـ، يراجع: الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٢٨٩ وما بعدها، ط: دار الكتب العلمية، ت: محمد عبد القادر عطا.

(٢)- يراجع: صيد الخاطر لأبي الفرج بن الجوزي ١/ ١٦٦، ط: دار القلم- دمشق، الطبعة الأولى، وعدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم ١/ ٢٥١ وما بعدها، ط: دار ابن كثير- دمشق، الطبعة الثالثة.

مشقة الإنفاق على النفوس:

الله تبارك وتعالى له ملك السموات والأرض، وله خزائن السموات والأرض، وله ميراث السموات والأرض، وقد استخلف اللهُ تعالى عباده فيما أعطاهم، ووجههم للبذل فيما يرضيه، والتكليف شاقٌّ على النفوس، وخاصة أمر الإنفاق، لا سيما إذا اتسعت دائرة المنفعة فيما يُنْفَقُ فيه، وَبَعُدَتْ نِسْبَةُ مَنْ يُنْفَقُ عَلَيْهِ عن الْمُنْفِقِ؛ لأن الإنسان مفطور على أنه لا يعمل عملا لا يَتَصَوَّرُ لنفسه منه فائدة، وأكثر النفوس جاهلة باتصال منافعها ومصالحها بالبعد عنها، فلا تشعر بأن الإنفاق في وجوه البر الهامّة - كإزالة الجهل بنشر العلم، ومساعدة العجزة والضعفاء، وإنشاء المستشفيات، وترقية الصناعات- من المصالح الضرورية؛ ولذا عَلَّمَهُمُ الله تعالى أن ما ينفقونه يُضاعَف لهم أضعافًا كثيرة.

وبيّن الله تعالى أن الذي يبخل إنما يبخل على نفسه، كما قال سبحانه: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴾ سورة محمد صلى الله عليه وسلم: ٣٨، فما يبذله الناس إنما هو رصيد مُدَّخر لهم في الآخرة، يجدونه أحوج ما كانوا إليه، يوم يحشرون مجردين من كل ما يملكون، فإذا بخلوا بالبذل فإنما يبخلون على أنفسهم، ويقللون من رصيدهم، ويحرمون أنفسهم بأيديهم.(١)

وأما في الدنيا؛ فالتعاسة هي أول عقوباته؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: "تَعِسَ عَبْد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة إن أُعطي رضي، وإن لم يُعط لم يرض"(٢)، وتلف المال وقلة بركته ثاني العقوبات، كما قال صلى الله عليه وسلم: "ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول

---

(١)- يراجع: تفسير المنار ٣/ ٥٠.

(٢)- رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الرقاق، باب ما يُتَّقى من فتنة المال، رقم ٦٠٧١، والقطيفة: دثار يُلبَس فوق الشعار، والشعار ما لامس الجسد، والخميصة: كساء أسود مربع، فتح الباري ١١/ ٢٥٤.

أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا"[١]، وهلاك البخيل نفسه من عقوباته، قال صلى الله عليه وسلم: "إياكم والشح، فإنما أهلك مَن كان قبلكم بالشح"[٢]

آداب الفقير في قبول العطاء:

وردت مَنَاهٍ كثيرة في السؤال إلا للضرورة؛ من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم"[٣]، وذلك لأن السؤال لا ينفك عن إظهار الشكوى من الله تعالى؛ إذ هو إظهار للفقر، وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه، وهو عين الشكوى، ولأن فيه إذلالاً للسائل نفسه لغير الله تعالى، وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله، ولأنه لا ينفك عن إيذاء المسؤول غالبًا؛ لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه، فإن بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ، وإن منع ربما استحيا وتأذى في نفسه بالمنع؛ إذ يرى نفسه في صورة البخلاء، ففي البذل نقصان ماله، وفي المنع نقصان جاهه، وكلاهما مؤذيان، والسائل هو السبب في الإيذاء، والإيذاء حرام إلا بضرورة.

وينبغي أَنْ يُلَاحِظَ الْفَقِيرُ فيما جاءه أمورًا، أما الأمر الأول: فَنَفْسُ المال: فينبغي أن يكون حلالاً خاليًا عن الشبهات كلها، فَإِنْ كان فيه شبهة فَلْيَحْتَرِزْ مِنْ أَخْذِهِ، وأما الثاني: فَغَرَضُ الْمُعْطِي؛ فإن كان غَرَضُهُ تَطْيِيبَ قلبه أو للثواب المجرد، فلا بأس بقبوله ما لم يكن فيه مِنَّةٌ أو كان غرضه السمعة والرياء، وإلا فَالأَوْلَى تَرْكُه، وأَمْرُ العالم والواعظ في قبول العطاء أشد.

---

(١)- رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الزكاة، باب قوله تعالى: فأما مَن أعطى واتقى وصدَّق بالحسنى فسنيسره لليسرى، رقم ١٤٤٢.

(٢)- رواه أبو داوود بسنده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، كتاب الزكاة، باب في الشح، رقم ١٦٩٨، وصححه الحاكم في مستدركه ١/ ٥٧٤.

(٣)- رواه الإمام البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، كتاب الزكاة، باب من سأل الناس تكثرًا، رقم ١٤٠٥.

وينبغي أن ينظر الآخذ أهو محتاج إليه فيما لا بد منه أو هو مُسْتَغْنٍ عنه –كما سبق– فإن كان محتاجًا إليه وقد سَلِمَ من الشبهة والآفات المذكورة في المعطي، فالأفضل له الأخذ، فقد قال بعض العلماء: من أُعطي ولم يأخذ سأل ولم يُعطَ، فَأَمَّا إذا كان ما أتاه زائدًا على حاجته، فلا وجْه لأخذه وإمساكه إلا إذا كان مشغولا بالفقراء، فليأخذه وليصرفه لهم، وقد كان الصلحاء يقولون: خذ ما زاد على حاجتك فإنه غير زائد على حاجة الفقراء، وبادر به إلى الصرف إليهم، ولا تدخره فإن إمساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار، فربما يحلو في قلبك فتمسكه فيكون فتنة عليك، وقد تصدى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة إلى التوسع في المال والتنعم في المطعم والمشرب، وذلك هو الهلاك.

وينبغي للآخذ أن يرى ما يأخذه من الله لا من المعطي؛ لأن المعطي واسطة قد سُخِّر للعطاء.[1]

---

(١)- إحياء علوم الدين ٤/ ٢٠٧ وما بعدها بتصرف.

الفصل السادس

قوله تعالى: (قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً)

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: في مسائل الآية الكريمة

المبحث الثاني: ارتباط (من ذا الذي) بمقام التسليم

المبحث الأول: في مسائل الآية

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ سورة الأحزاب الآية رقم: ١٧

(المسألة الأولى): هذه الجملة الكريمة واقعة موقع التعليل لجملة ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ سورة الأحزاب الآية رقم ١٦، كأنه قيل: لا عاصم لكم من نفوذ مراده فيكم، وما كتب الله لكم واصل إليكم بكل حال.[١]

(المسألة الثانية): إرادة الله تعالى محيطة بالمخلوقات، فمتى شاء عَطَّلَ تأثير الأسباب، أو عرقلها بالموانع، فربما أتت الرزايا من وجوه الفوائد، ومتى شاء خيرًا بأحد لاقى من التيسير ما لم يكن مُتَرَقَّبًا، ومتى لم تتعلق مشيئته بخصوص أرسل الأحوال في مَهْيَعِهَا، وَخَلَّى بين الناس وبين ما سَبَّبَهُ في أحوال الكائنات، فنال كُلُّ أَحَدٍ نَصِيبًا على حسب فطنته ومقدرته واهتدائه.

(المسألة الثالثة): الاستفهام إنكاري في معنى النفي لاعتقادهم أن الحيلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفعهم، وأن الفرار يعصمهم من الموت إن كان قتال.

وجملة ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جواب الشرط في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾.[٢]

---

(١)- يراجع: جامع البيان ٢٠/ ٢٢٨، ومفاتيح الغيب ٢٥/ ١٧٤، والتحرير والتنوير ٢١/ ٢٩١.

(٢)- يراجع: روح المعاني ٢١/ ١٦٣، والتحرير والتنوير ٢١/ ٢٩١.

(المسألة الرابعة): العصمة: هي الوقاية والمنع مما يكرهه المعصوم، وعِصْمَةُ الأنبياءِ: حِفْظُهُ إيّاهم أوّلا بما خصّهم به من صفاء الجوهر، ثم بما أولاهم من الفضائل الجسميّة، ثمّ بالنّصرة وبتثبيت أقدامهم، ثمّ بإنزال السّكينة عليهم، وبحفظ قلوبهم، وبالتّوفيق.(١)

(المسألة الخامسة): قوبل السوء بالرحمة؛ لأن المراد سوء خَاصٌّ، وهو السوء المجعول عذابًا لهم على معصية الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو سوء خاص مُقَدَّرٌ من الله تعالى لأجل تعذيبهم إنْ أراده.(٢)

(المسألة السادسة): قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ عَطْفٌ على جملة ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، والكلام فيها مُوَجَّهٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ لإعلامه ببطلان تَحَيُّلَاتِهِمْ، وأنهم لا يجدون نصيرًا غير الله تعالى، وقد حَرَمَهُمُ اللهُ تعالى النَّصْرَ؛ لأنهم لم يَعْقِدُوا ضمائرهم على نَصْرِ دين الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.(٣)

(المسألة السابعة): الولي: هو الذي يتولى النفع، والنصير: يكون في الحرب خاصة، أو الولي: هو الذي ينفع، والنصير: الذي يمنع، أو الولاية تكون بإخلاص المودة، والنصر يكون بالمعونة والتقوية، وقد لا تمكن النصرة مع حصول الولاية.(٤)

---

(١)- يراجع: تهذيب اللغة ٢/ ٣٣ وما بعدها، المفردات في غريب القرآن ١/ ٥٦٩ .

(٢)- يراجع: الكشاف ٥/ ٥٣٦، والتحرير والتنوير ٢١/ ٢٩١ .

(٣)- التحرير والتنوير ٢١/ ٢٩١ .

(٤)- يراجع: الصحاح ٢/ ٨٢٩، والفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ١/ ٥٧٨، ط: مؤسسة النشر الإسلامي-قم، ط١: ١٤١٢هـ، ومعالم التنزيل ٦/ ٣٣٤، والتحرير والتنوير ٢١/ ٢٩١ .

المبحث الثاني

ارتباط (من ذا الذي) بمقام التسليم

علمنا مما سبق ارتباط الاستفهام بقوله: (من ذا الذي) هنا بمقام التسليم؛ لبيان أن إرادة الله تعالى محيطة بالمخلوقات، وذلك أن الاستفهام هنا إنكاري في معنى النفي لاعتقادهم أن الأسباب تفعل بتأثير مستقل.

فعلى المؤمن أن يفعل من الأسباب ما لا غنى له عنه، وعليه أن يوقن بأن قدر الله تعالى هو الغالب، وبالتالي فإن التسليم لله تعالى وطاعته والوفاء بعهده محتوم في السراء والضراء.

والتسليم ثمرة من ثمار محبة الله تعالى، وهو من أعلى مقامات المقربين.

ولقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين أن يتشبهوا بالقائلين: لو كان كذا وكذا لما وقع قضاؤه، فقال: "احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، إن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان."(١)

وقسم العلماء أحكام القضاء إلى أنواع:

فالحكم الشرعي حقه أَن يُتلقَّى بالمسالمة والتسليم وترك المنازعة والانقياد المحض، ولا يُعارَض بذوق ولا وجْدٍ ولا تقليد، ولا يُرَى إلى خلافه من سبيل ألبتة، وهذه حقيقة القلب السليم الذي سلم من أي شبهة تعارض الحق والأمر، واطمأن إلى الله تعالى معرفةً به ومحبة له.

وأما الحكم الكوني: فمنه ما يمكن دفعه، وهذا يُنازَع بالحكم الكونى أيضًا ويُدافَع به، كما

(١)- رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الآداب، باب استعن بالله ولا تعجز، رقم ٦٨٦٨.

قال شيخ العارفين فى وقته عبد القادر الجيلانى رضي الله عنه(١): "نازعتُ أَقدارَ الحق بالحق للحق، والعارف من يكون منازعًا للقدر لا واقفًا معه"(٢)، وتأمل قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه –وقد عوتب على فراره من الطاعون فقيل له–: "أتفر من قدر الله؟ فقال: نفر من قدر الله إلى قدر الله"(٣)، ثم كيف ينكر هذا الكلام مَن لا بقاءَ له في هذا العالم إلا به، ولا تتم له مصلحة إلا بموجبه، فإنه إذا جاءه قدر من الجوع والعطش أو البرد نازعه وترك الانقياد له ومسالمته، ودفع بقدر آخر من الأكل والشرب واللباس، فقد دفع قدرَ الله بقدره، وهكذا إذا أصابه مرض بقدر الله دافع هذا القدر ونازعه بقدر آخر يستعمل فيه الأدوية الدافعة للمرض، ولو أَن عدوًّا قصدنا لكان هذا بقدر الله، ويجب على كل مسلم دفع هذا القدر بقدر يحبه الله تعالى، وهو الجهاد باليد أو المال أو القلب؛ دفعًا لقدر الله بقدره.

فحقُّ هذا الحكم الكونى أَن يحرص العبد على مدافعته ومنازعته بكل ما يمكنه، فإن غلبه وقهره، حرص على دفع آثاره وموجباته بالأسباب التي نصبها الله لذلك، فيكون قد دفع القدر بالقدر ونازع الحكم بالحكم، وبهذا أُمر، بل هذه حقيقة الشرع.

وهناك حكم يجري على العبد لا طاقة له بدفعه ولا حيلة له في منازعته، فهذا يُتلقَّى بحسن الاستسلام، وشهود عزة الحاكم في حكمه، وعدله في قضائه، وأنه ما أصابه إلا لحكمة اقتضاها

---

(١)- هو محيي الدين أبو محمد عبد القادر بن موسى بن عبد الله الجيلاني، أو الكيلاني، أو الجيلي ٤٧١ ه–٥٦١ ه، مؤسس الطريقة القادرية، من كبار الزهاد والمتصوفين، ولد في جيلان – وراء طبرستان – وانتقل إلى بغداد فاتصل بشيوخ العلم والتصوف، وبرع في أساليب الوعظ، وتفقه، وسمع الحديث، وقرأ الأدب، واشتهر، وتصدر للتدريس والإفتاء في بغداد، وتوفي بها، له : الفتح الرباني، وفتوح الغيب، يراجع: سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي ٢٠/ ٤٣٩ وما بعدها، ط: مؤسسة الرسالة، ط٣، والأعلام للزركلي ٤/ ٤٧.

(٢)- مدارج السالكين ١/ ٢١٧.

(٣)- رواه الإمام البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، كتاب الطب، باب ما يُذكَر في الطاعون، رقم ٥٣٩٧.

اسم الحكيم جل جلاله، فله عليه أكمل حمد وأتمه، كما له الحمد على جميع أفعاله.

وقد لهج خلقٌ بالاعتراض قدحًا في الحكمة، لأنهم نظروا إلى صورة الفعل، ولو أن صورة الفعل صدرت من مخلوق مثلنا، حسن أن يعترض عليه؛ فأما مَن نقصت الأفهام عن مطالعة حكمته، فاعتراض الناقص الجاهل عليه جنون.

وأما اعتراض الخلعاء فدائم؛ لأنهم يريدون جريان الأمور على أغراضهم، فمتى انكسر لأحدهم غرض، اعترض.

وأما العبد الذي يسلِّم لربه ويرضى بِمَا اختاره لَهُ، فإنه يمده فيما اختاره له بالقوة عليه، ويصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العَبْد لنفسه، ويريه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنَفسِهِ، ويصير بين عطفه ولطفه، فعطفه يَقِيه مَا يحذره، ولطفه يهوّن عليه ما قدره.

وقد نظر الصالحون في بواطن الأمور، فتيقنوا رفعة درجة من يسلم بالمقدور، فهذا ميمون بن مهران[١] يقول: "من لم يسلم بالقضاء فليس لحمقه دواء"[٢]، وروي أن عابدًا عبد الله تعالى دهرًا طويلاً، فأُري في المنام أن فلانة الراعية رفيقتك في الجنة، فسأل عنها إلى أن وجدها، فاستضافها ثلاثًا لينظر إلى عملها، فكان يبيت قائمًا وتبيت نائمة، ويظل صائما وتظل مفطرة، فقال: أما لك عمل غير ما رأيت؟ فقالت: ما هو والله إلا ما رأيت، لا أعرف غيره، ولكني إنْ كنت في شدة لم أتمن أن أكون في رخاء، وإن كنت في مرض لم أتمن أن أكون في صحة، وإن كنت في

(١)- هو أبو أيوب ميمون بن مهران ٣٧هـ- ١١٧ه، الفقيه الثقة، كان مولى لامرأة بالكوفة وأعتقته، فنشأ فيها، ثم استوطن الرقة -من بلاد الجزيرة الفراتية- فكان عالم الجزيرة وسيدها، واستعمله عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه على خراجها وقضائه، يراجع: الطبقات الكبرى لابن سعد ٧/ ٤٧٧ وما بعدها، ط: دار صادر-بيروت، ت: إحسان عباس، وصفة الصفوة لابن الجوزي ٢/ ش٣٦٠ وما بعدها، ط: دار الحديث- القاهرة. .

(٢)- إحياء علوم الدين ٤/ ٣٤٦.

الشمس لم أتمن أن أكون في الظل، فوضع العابد يده على رأسه وقال: هذا ما يعجز عنه العباد!!![١]

والخلاصة أن التسليم لله يبطل الإحساس بالألم حتى يجري عليه المؤلم ولا يشعر به، ومثاله الرجل المحارب: فإنه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بألم ذلك لشغل قلبه؛ لأن القلب إذا صار مستغرقًا بأمر من الأمور لم يدرك ما عداه!!![٢]

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

(١)- إحياء علوم الدين ٤/ ٣٤٦.

(٢)- يراجع: منازل السائرين لأبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي ١/ ٤٧ وما بعدها، ط: دار الكتب العلمية، وإحياء علوم الدين ٤/ ٣٤٤ وما بعدها، وصيد الخاطر لابن الجوزي ١/ ٤٩٦، ط: دار القلم- دمشق، ط١: ١٤٢٥هـ، ت: حسن سويدان، وطريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم ١/ ٣٧ وما بعدها، ط: دار السلفية- مصر..

الخاتمـــة

اللهم لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

،،، وختامًا

هذا هو غاية الوسع ومنتهى الطوق – ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها – وقد توصلت بفضل الله تعالى من خلال هذا البحث إلى النتائج التالية:

١- الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم من أهمّ وجوه إعجازه، ففي القرآن الكريم ضروب من البلاغة غير مسبوقة، وآفاق رحبة من الجمال تبهر الألباب!!!

٢- الاستفهام من الأساليب الإنشائية التي يكثر ورودها في الكلام البلاغي، وفى المحادثة اليومية عند جميع الناس، وقد تفتحت أزهاره في ضوء القرآن الكريم، وتنوعت طرق عرضه، وتميز بدقة أغراضه!!!

٣- (من) صالحة لكل من يعقل، وتكون اسمًا؛ بدليل وقوعها في مواضع الأسماء، وتأديتها ما يُؤَدِّيه سائر الأسماء، فتكون فاعلة ومفعولة وغير ذلك، وتأتي موصولة، وتأتي نكرة موصوفة، وتكون شرطية ينجزم الفعل وجوابه معها، وتكون اسمًا تامًّا للاستفهام عمن يعقل.

٤- (ذا) اسمٌ مُبْهَمٌ لَا يُعرَف ما هو حتى يُفَسِّره ما بعْدَه، ويُشار به إلى غير مذكور لفظًا، بل هو مذكور معنى.

٥- (ذا) التي تأتي بعد (من) الاستفهامية تكون اسمًا موصولاً، ويجوز أن تكون اسم إشارة، ويجوز فيها الإلغاء، فإما أن تجعل مع (ما) كلمة واحدة، وإما أن يقال: هي زائدة ولا محل لها من الإعراب.

٦- ارتبط الاستفهام بقوله: (من ذا الذي) في قوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً ﴾ بمقام البذل في الجهاد، لإعزازِ الدِّين، وتوهين أهل الكفرِ؛ حثًّا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم على البذل ببيان بأن الباذل يرتقي المقامات الشريفة التي

تتوجه إليها مدْحَةُ الله تعالى وكريمُ وعده، ففي الاستفهام ما فيه من التحضيض والتهييج على الاتصاف بالخير؛ كَأَنَّ الْمُسْتَفْهِمَ لا يدري مَنْ هو أهل هذا الخير والجدير به، وقد جمع فيه أيضًا بين الإشارة والموصول، وفيه ما فيه من بيانٍ لعلو شأن من يبذل، إذ تدل على أن المخاطَب له شأن جليل إلى درجة أن يُشار إليه، ويتحدث عنه؛ فإنه إنما يقال: مَنْ ذَا الذي يفعل كذا؟ في الأمر الذي يَنْدُرُ أَنْ يُقْدِمَ عليه أحد.

٧- حُكْم الله تعالى يجري على الجميع؛ فليس لغيره في شيء من الأشياء حكم إلا بأمره، فمقام الشفاعة لا يكون إلا بإذنه، وقد دل بالاستفهام الذي هو في معنى النفي على ذلك، ولذلك دخلت ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾، أي: لا أحد يشفع عنده إلا مأذونًا له.

وأهل السنة يؤمنون بـمقام الشفاعة عند الله تعالى بعد إذنه للشافع ورضاه جل شأنه عن المشفوع فيه؛ لثبوت أدلتها، وأما المعتزلة فشاغبوا وأنكروها لأصحاب الكبائر إذا ماتوا دون أن يتوبوا منها؛ لقولهم بوجوب الثواب والعقاب على الله تعالى؛ لأن وعد الله ووعيده صدق لا يمكن أن يتخلف عندهم، والشفاعة عندهم إنما هي في رفع درجات المؤمنين في النعيم، وكلامهم مخالف للمنقول والمعقول.

٨- ارتبط الاستفهام بقوله: (من ذا الذي) في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ بمقامي النصر والتوكل؛ ليوجه أنظار المخاطبين إلى البحث عن قوى تكون قدرتها كافية للوقوف أمام إرادة الله تعالى الخذلان، ولن يجدوه، فعندئذ يحكمون بأن الله وحده الكبير المتعال، ولا ناصر سواه؛ فلا يتوكلون إلا عليه سبحانه وتعالى، لا على الأشخاص الفانين، وذلك أن الاستفهام هنا إنكاريٌّ مفيدٌ لانتفاء الناصرِ ذاتًا وصفةً بطريق المبالغة!!!

٩- ارتبط الاستفهام بقوله: (من ذا الذي) في قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٌ كَرِيمٌ﴾ بمقام الإنفاق في سبيل الله تعالى؛ لأن الاستفهام هنا يتضمّن معنى الطّلب، وهو أبلغ في الطّلب من صيغة الأمر، والمعنى: هل أحد يبذل هذا القرض الحسن، فيُجازَى عليه أضعافًا مُضاعَفة؟

١٠- ارتبط الاستفهام بقوله: (من ذا الذي) في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةً﴾ بمقام التسليم؛ لبيان أن إرادة الله تعالى محيطة بالمخلوقات، فمتى شاء عَطَّلَ تأثير الأسباب، أو عرقلها بالموانع، فربما أتت الرزايا من وجوه الفوائد، ومتى شاء خيرًا بأحد لاقى من التيسير ما لم يكن مُتَرَقَّبًا، ومتى لم تتعلق مشيئته بخصوص أرسل الأحوال في مَهْيَعِهَا، وَخَلَّى بين الناس وبين ما سَبَّبَهُ في أحوال الكائنات، فنال كُلُّ أَحَدٍ نَصِيبًا على حسب فطنته ومقدرته واهتدائه، وذلك أن الاستفهام هنا إنكاري في معنى النفي لاعتقادهم أن الأسباب تفعل بتأثير مستقل.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

وصل اللهم وسلم على خير الخلق أجمعين

ثبت المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

مصادر ومراجع التفسير وعلوم القرآن الكريم:

١- إرشـــاد العقل الســـليم إلى مزايا الكتاب الكريم للعلامة أبي الســـعود، ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت.

٢- إعراب القرآن لأبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النَّحَّاس النحوي ت ٣٣٨هـ،ط: دار الكتب العلمية- بيروت،ط١ : ١٤٢١ هـ، ت: عبد المنعم خليل إبراهيم.

٣- أنوار التنزيل وأسرار التأويل لناصر الدين عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي، ط: دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط١:١٤١٨هـ، ت: محمد المرعشلي.

٤- البحر المحيط لأبي حيان، ط: دار الفكر.

٥- البحر المحيط لأبي حيان، ط: دار الكتب العلمية، ط١ : ١٤٢٢ هـــــ، ت: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد عوض.

٦- تحرير المعنى الســديد وتنوير العقل الجديد من تفســير الكتاب المجيد للطاهر بن عاشــور، ط: الدار التونسية للنشر-١٩٨٤م

٧-تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسـماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشـقي، ط: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢: ١٤٢٠هـ، ت: سامي بن محمد سلامة.

٨- تفسير المنار للشيخ رشيد رضا، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٩٩٠م

٩- جامع البيان في تأويل آي القرآن للإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، أبــو جعفر الطبري، ط: مؤسسة الرسالة، ط١: ١٤٢٠هـ ، ت: الشيخ أحمد شاكر.

١٠ -الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي، ط: دار الكتب المصرية، ط٢: ١٣٨٤هـ، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش.

١١- الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي، ط: دار المأمون للتراث- دمشق، ط٢:١٤١٣هـ، ت: بدر الدين قهوجي وبشير جويجاني.

١٢- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني للإمام الألوسي، ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت.

١٣- زهرة التفاسير لأبي زهرة، ط: دار الفكر.

١٤- السبعة في القراءات لأبي بكر أحمد بن مجاهد، ط: دار المعارف، ط٢:١٤٠٠هـ، ت:د/ شوقي ضيف.

١٥- العجاب في بيان الأسباب لابن حجر، ط: دار ابن الجوزي، ت: عبد الحكيم الأنيس.

١٦- الكشاف عن حقائق التأويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لجار الله الزمخشري، ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت، ت: عبد الرزاق المهدي.

١٧- لطائف الإشارات للإمام القشيري عبد الكريم بن هوازن، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ت: إبراهيم البسيوني.

١٨- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، ط: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤١٣هـ، ت: عبد السلام عبد الشافي.

١٩- معالم التنزيل للإمام محيي السنة البغوي، ط: دار طيبة للنشر، ط٤: ١٤١٧هـ.

٢٠- مفاتيح الغيب للفخر الرازي، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، ط١: ١٤٢١هـ.

٢١- مفاتيح الغيب للفخر الرازي، ط: دار إحياء التراث.

٢٢- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ط: دار القلم- دمشق، ت: صفوان عدنان.

٢٣- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي، ط: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤١٥هـ، ت: عبد الرزاق غالب المهدي.

مصادر ومراجع الحديث الشريف وعلومه :

١ - الجامع الصحيح لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، ط: دار الجيل- بيروت.

٢- الجامع الـ صحيح لأبي عيسى الترمذي، ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت، ت: الشيخ أحمد شاكر.

٣- الجامع الصحيح المختصر من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه لمحمد بن إسماعيل البخاري، ط: دار ابن كثير- اليمامة، ط٣: ١٤٠٧هـ، ت: د/ مصطفى ديب البغا.

٤- السنن لأبي داودسليمان بن الأشعث السّجِسْتاني ت ٢٧٥هـ،ط: المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ت:الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد

٥- فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، ط: دار المعرفة - بيروت - ١٣٧٩هـ.

٦- فتح الغفار الجامع لأحكام سنة نبينا المختار للحسن بن أحمد الصنعاني ت ١٢٧٦هـ، ط: دار عالم الفوائد، ط١: ١٤٢٧هـ.

٧- مجمع الزوائد لابن حجر الهيثمي، ط: مكتبة القدسي- القاهرة- ١٩٩٤م، ت: حسام الدين القدسي.

٨- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للإمام النووي، ط: دار إحياء التراث العربي.

مصادر ومراجع علم الكلام :

١ - الإبانة للإمام للأشعري، ط: دار الأنصار- القاهرة.

٢- إثبات الشفاعة للحافظ الذهبي، ط: أضواء السلف-الرياض.

٣- شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار، ط: الهيئة العامة للكتاب، ت: د/ عبد الكريم عثمان.

٤ – طبقات المعتزلة للقاضي عبد الجبار، ط: الدار التونسية.

مصادر ومراجع الأخلاق والتصوف:

١ – إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، ط: دار المعرفة– بيروت.

٢ – أدب النفس لأبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر الحكيم الترمذي ت ٣٢٠هـ، ط: الدار المصرية اللبنانية– مصر، ط١: ١٤١٣هـ، ت: د/ أحمد عبد الرحيم السَّايح.

٣– آداب النفوس لأبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي، ط: دار الجيل– بيروت، ت: عبد القادر أحمد عطا.

٤ – بدائع الفوائد لابن القيم، ط: دار الكتاب العربي.

٥– الرسالة القشيرية للإمام القشيري، ط: دار المعارف– القاهرة، ت: الإمام عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف.

٦– صفة الصفوة لابن الجوزي، ط: دار الحديث– القاهرة.

٧– صيد الخاطر لأبي الفرج بن الجوزي، ط: دار القلم– دمشق، الطبعة الأولى.

٨– طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي، ط: دار الكتب العلمية، ت: مصطفى عبد القادر عطا.

٩– طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم، ط: دار السلفية– القاهرة، ط٢: ١٣٩٤هـ.

١٠ – مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم، ط: دار الكتاب العربي.

١١ – عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم، ط: دار ابن كثير– دمشق، الطبعة الثالثة.

١٢ – منازل السائرين لأبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي، ط: دار الكتب العلمية.

مصادر ومراجع الفقه وأصوله :

١ - الأم للإمام الشافعي، ط: دار المعرفة- ١٤١٠هـ.

٢ - الإنجاد في أبواب الجهاد وتفصيل فرائضه وسننه وذكر جمل من آدابه ولواحق أحكامه لأبي عبد الله محمد بن عيسى بن محمد بن أصبغ الأزدي القرطبي ت: ٦٢٠هـ، ط: مؤسسة الريان، ت: مشهور بن حسن ومحمد بن زكريا أبو غازي.

٣- السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني، ط: الدار المتحدة للنشر.

٤ - المدونة للإمام مالك، ط: دار الكتب العلمية، ط١ : ١٤١٥هـ.

مصادر ومراجع اللغة :

١ - الإيضاح في علوم البلاغة لأبي المعالي محمد بن عبد الرحمن جلال الدين الخطيب القزويني الشافعي،ط: دار الجيل- بيروت، ط٣، ت: محمد عبد المنعم خفاجي.

٢- تاج العروس من جواهر القاموس لأبي الفيض مرتضى محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني الزَّبيدي المتوفى: ١٢٠٥هـ، ط: دار الهداية.

٣- تاج اللغة وصحاح العربية المعروف بالصحاح للجوهري أبي نصر إسماعيل بن حماد، ط: دار العلم للملايين- بيروت، ط٤: ١٤٠٧ه، ت: أحمد عبد الغفور عطار

٤- التطبيق النحوي للدكتور عبده الراجحي، ط: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط١: ١٤٢٠هـ.

٥- تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري، ط: دار إحياء التراث، ط١: ٢٠٠١م، ت: محمد عوض.

٦- جامع الدروس العربية لمصطفى بن محمد سليم الغلايينى ت ١٣٦٤هـ، ط: المكتبة العصرية- صيدا، ط٢٨: ١٤١٤ه.

٧- جمهرة اللغة لأبي بكر بن دريد، ط: دار العلم للملايين- بيروت، ط١: ١٩٨٧م، ت: رمزي منير بعلبكي.

٨- ديوان طرفة بن العبد، ط: دار الكتب العلمية، ط٣: ١٤٢٣هـ، ت: مهدي محمد ناصر الدين.

٩- رسالة منازل الحروف لأبي الحسن الرماني، ط: دار الفكر- عمان، ت: إبراهيم السامرائي.

١٠- الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري، ط: دار الحديث- القاهرة.

١١- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم لنشوان بن سعيد الحميرى اليمني ت ٥٧٣هـ، ط:دار الفكر المعاصر- بيروت، ت: د/ حسين بن عبد الله العمري- مطهر بن علي الإرياني- د/ يوسف محمد عبد الله

١٢- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري ت ٣٩٣هـ،ط: دار العلم للملايين- بيروت، ط٤: ١٤٠٧هـ، ت: أحمد عبد الغفور عطار.

١٣- علل النحو لأبي الحسن محمد بن عبد الله بن الوراق، ط: مكتبة الرشد- الرياض، ت: محمود جاسم.

١٤- العين للخليل بن أحمد، ط: دار الهلال، ت: د/ مهدي المخزومي-د/ إبراهيم السامرائي

١٥- الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، ط: مؤسسة النشر الإسلامي-قم، ط١: ١٤١٢هـ

١٦- الكتاب لسيبويه، ط: مكتبة الخانجي- القاهرة، ط٣: ١٤٠٨هـ، ت: عبد السلام محمد هارون.

١٧- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي، ط: مؤسسة الرسالة- بيروت، ت: عدنان درويش-محمد المصري.

١٨- لسان العرب لابن منظور الأفريقي المصري، ط: دار صادر- بيروت، الطبعة الأولى.

١٩- اللمع في العربية لأبي الفتح عثمان بن جني، ط: دار الكتب الثقافية- الكويت، ت: فائز فارس.

٢٠- المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده، ط : دار الكتب العلمية - ٢٠٠٠م

٢١- مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، ط٢: ١٤٠٧ه، ت: نعيم زرزور.

٢٢- المفضليات للمفضل الضبي، ط: دار المعارف- القاهرة، ت: الشيخ أحمد محمد شاكر.

٢٣- المقتضب لأبي العباس المبرد، ط: عالم الكتب، ت: محمد عبد الخالق عظيمة.

كتب التراجم:

١- أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، ط: دار الفكر-١٩٨٩م

٢-الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ط: دار الكتب العلمية.

٣- الأعلام لخير الدين الزركلي، ط: دار العلم للملايين.

٤- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للإمام السيوطي، ط: المكتبة العصرية – لبنان، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم.

٥-سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي، ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة.

فهرس الموضوعات

الملخص ٥

المقدمـــة ٨

تمهيد ١٣

الفصل الأول: (مَن ذا الذي) إفرادًا وتركيبًا ١٨

أولا: لطيفة في (مَن): ١٨

ثانيًا: لطيفة في (ذا): ٢٠

ثالثًا: تركيب (ذا) مع (من) ٢٠

الفصل الثاني: قوله تعالى: (مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً)

.... ٢٣

المبحث الأول: مسائل الآية الكريمة ٢٣

المبحث الثاني: ارتباط (من ذا الذي) بالبذل في الجهاد ٣٣

الفصل الثالث: قوله تعالى:(مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) ٣٧

المبحث الأول: في مسائل الآية الكريمة ٣٧

المبحث الثاني: ارتباط (من ذا الذي) بمقام الشفاعة ٤٥

الفصل الرابع: قوله تعالى: (إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ) ٥٤

المبحث الأول: في مسائل الآية الكريمة ٥٤

المبحث الثاني: ارتباط (من ذا الذي) بمقامي النصر والتوكل ٥٧

الفصل الخامس: قوله تعالى:(مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ) ٦٥

المبحث الأول: في مسائل الآية ٦٥

المبحث الثاني: ارتباط (من ذا الذي) بمقام الإنفاق في سبيل الله تعالى ٦٩

الفصل السادس :قوله تعالى: قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ٧٧

المبحث الأول: في مسائل الآية ٧٧

المبحث الثاني: ارتباط (من ذا الذي) بمقام التسليم ٧٩

الخاتمـــــة ٨٣

ثبت المصادر والمراجع ٨٦

فهرس الموضوعات ٩٣